صـــديق شيبوب

تحيــة لذكراه

فى سطور قلائل ، صباح يوم الجمعة ١٩٦٥/٤/٢٣ نعت الصحافة شيخا من شيوخها الاجلاء ، هو الأستاذ ((صديق شيبوب)) .

كانت ((الاسكندرية)) مقامه ، فيها لمع اسمه ، وبرزت شخصيته ، فلم تكن تخلو منه ندوة من ندواتها جليسا أنيسا ، أو محاضرا بارعا ، أو مشاركا فى مسعى من المساعى التى تستهدف خدمة الثقافة والمجتمع.

واذا كان العمل الصحفى قد فرض على الأستاذ ((صديق شيبوب)) فرضا ، باعتباره مورد رزق ، فقد كانت الصحافة كذلك متنفسا له يعبر به عن ولوعه بالأدب ، ويعرض ما له من أثر فيه .

لم يكن أدبه وليد عاطفة جياشة وقريحة وقادة فحسب ، ولكنه كان مع هذه وتلك يستمد اصالته وقوته من ثقافة عالمية واسعة الأطراف ، والمام شامل بما يجد من تيارات فكرية شتى .

ألزم نفسه ، زهاء ثلث قرن ، أن ينقد الكتب فى مقـــال اسبوعى يتصدر الجريدة السكندرية التى يعمل فيها ، وما كان فى نقده يجتزىء بتصيد ملاحظات عابرة يتناول بها الكتاب المنقود ، بل كان يتخذ من الموضوع سبيلا الى بسط رأى او جلاء فكرة او مناقشة قضية يجد فيها القارىء فائدة ومتعة يزدوجان فى آن .

وربما رأيته فى نقده مؤيدا او معارضا ، بيد أنه لا يحتد فى معارضة ولا يشتد فى تاييد . طابعه الاعتدال ، ورائده الصراحة ، وقوام النقد عنده عفة القلم .

وما احسبه كان يبغى بما يكتب شهرة وبعد صيت ، والا لما حبس مقالاته النقدية تلك فى صحيفة ((البصير)) - وهى صحيفة محلية محدودة، ميدانها الشئون المالية والتجـــارية ، وذيوعها مقصور على مدينـــة ((الاسكندرية)) ، ومع ذلك فان مقالاته كانت تصل الى الخاصة من أهل الفكر والادب ، وتنزل عندهم منازل التقدير والاكبار .

ولقد عرفنا للأستاذ ((صديق شيبوب)) اقباله على القصة تأليفا وترجمة ... وانت فى قصصه المؤلفة تلمح لقطات بارعة من البيئـــة حواليه ، وصورا لطيفة لشخصيات تنتفض حيوية ، وتجده يعـــالج مضامين القصص واحداثها معالجة سوية هادئة غير متكلفة . أما مترجماته فهى مختارات موفقة من أدب اللغـــة الفرنسية ، وكان يحسنها أيما احسان . ولذلك اتسمت ترجماته بالدقة ، مع سلاسة لفظ ، وجمال عبارة ، وقوة اداء .

وفى هذا الجزء مر المجلة ، ننشر احدى مترجماته ، ونرجو أن ننشر فى اجزاء تالية ما ترجم او ألف من قصص .

ولذكراه العطرة تحية وسلام ..

محمود تيمور

سحر النيل



بقلم : جنفيف جينارى

ترجمة : صديق شيبوب

(٣)

كنت ولا أزال أخشى الوحدة والانفراد بين الآثار المصرية سواء كان ذلك تحت قبة هيكل السرابيوم حيث ترقد العجول المقدسة ، أو فى ضوء القمر بين أعمدة هيكل الكرنك ، او فى المقابر أمام اللاعبين بالمزمار ، وبين زهور اللوتس .

أجل ، كنت دائما أشعر بخوف لا أستطيع تفسيره ، ولعلى كنت أشعر بانى لست منفردا ، بل ان هناك شهودا غير منظورين يرمقوننى بأعين نفاذة . وكنت أحس بخوف بهم من ظهور ، هو اشد من مومياء أو شبح فرعونى ، أو ظهور أحد كهنة تلك الديانات الجهنمية ، أى ظهور روح خبيثة أو حيوان شرير .

على اننى قبلت راضيا مسرورا عندما عرض على رئيس تحرير الصحيفة التى أعمل فيها السفر الى مصر للقيام باول تحقيق صحفى بعد الحرب العالمية الثانية عن الحفريات بمصر ، وعن العلاقات بين الدوائر المصرية ومختلف البعثات الأجنبية . ولم أكن زرت مصر منذ عهد بعيد حين كنت مدة شتاء كامل أعمل سكرتيرا للورد ج ... وكنت بعد ذلك أوطد النفس على العودة اليها ثم اخلف ... وهكذا غادرت لندن فى صباح أحد أيام شهر ابريل سنة ١٩٤٩ قاصدا الى القاهرة مباشرة .

وفهمت عندما اتصلت فيها بالأوساط التى تستطيع تسهيل مهمتى أن التحقيق الذى ساقوم به سيكون شاقا ولن

يترك لى الوقت الكافى لأتصل بأصدقائى القدامى ولزيارة الأماكن التى لا تهم احدا غيرى .

ولما عرضت استعدادى لزيارة جميع أماكن الحفريات قيل لى فى الحال :

ــ اذن قابل « جيمس و . جيم » .

ولم يكن هذا الاسم غريبا عنى ، ولكنه لم يذكرنى بشخص معين ، فذهبت أسأل من يكون « جيم » هذا ؟ فقيل لى انه نصف مجنون ، وانه كان طالبا فى معهد الآثار ، وانه يعيش منذ سنتين وحيدا فى قرية نيساح ببلاد النوبة العليا ، وانه نيطت به مهمة نقل الكتابة الموجودة فى هيكل صغير يرجع الى ما قبل هذا التاريخ بكثير ، وانه قد يقلب راسا على عقب النظرية الخاصة بالفن الذى يرجع الى ما قبل عهد الأسر .

وتساءلت لماذا لا أزوره فى الحال ؟ .

واخذوا يهزاون بى ، ولكنى تمسكت برأيى . ثم تذكرت رويدا رويدا ذلك الشاب الشاحب الوجه والأسمر اللون الذى كان يدعى بهذا الاسم والذى كان يتردد على المنزل الذى كان للورد ج .. فى الفيوم حيث كانت بناته يستقبلن أصدقاءهن .

وشعرت بالغبطة والسعادة فى مساء ذلك اليوم عندما ركبت قطار الليل من محطة القاهرة . وتناولنى احساس ، بعد أن غادر القطار المحطة واخذ سمته نحو الجنوب مخترقا الصحراء كانه يسير الى آخر العالم لأنه لا يوجد بعد نهايته عند الشلال خط حديدى آخر أو طريق . لا شىء سوى النهر والبواخر البطيئة السير . وكنت مغتبطا بأن أركب قطارا لا يصل خطه بخط آخر . واضطجعت فى سريرى ورحت فى اغفاءة اختلطت تموجاتها بهزات القطار فكاننا ، أنا والقطار ، نسير الى الفضاء المطلق ، الى نقطة النهاية .

وفى الصباح استيقظت على اسم الأقصر ينادى به على الرصيف . ثم سار القطار فغادرت السرير وفتحت النافذة وكان الحر قد اخذ يشتد ويكسو الرمل الباهت اللون لهبا تحت أشعة الشمس المنتشرة فى كل مكان . وبعد أسوان استمر القطار فى سيره بعض كيلو مترات ثم توقف .

كنا وقتئذ فى اواخر شهر ابريل ، ولم يكن كثيرا عدد الركاب المسافرين فى الباخرة التى تسير من الشلال الى وادى حلفا وتصل بين آخر محطة للسكة الحديد بمصر وأولها فى السودان ولم أجد على ظهر الباخرة فيما عدا رجالها غير جماعة من السائحين الأمريكيين . وكان عدد النساء يزيد على عدد الرجال . وكن فى ذلك الطور من النضوج الذى تحتفظ فيه النساء بروائهن . وقد لبسن ثيابا ناصعة البياض ، ووضعن قبعات من القش على رؤوسهن ، وامسكن بأيديهن منشات من الشعر .

ووقفت الباخرة فى أبهور بناء على طلبى . وكنت قدكتبت من القاهرة أطلب دليلا يرافقنى من ابهور الى نيساح . وقد وجدته ينتظرنى ، كما كان هناك حماران قد أعدا لنا فركبناهما . ولم

يتبين لدى ما يدعونى الى التوقف فى ابهور فقصدنا الى نيساح سائرين على ضفة النيل . وكنت أشعر بنشوة وأنا أتعرف من جديد الى جمال تلك المناظر الخالدة فى مصر ، منظر أشجار البلح التى ترسم خطوطا فوق الارض المكسية باشعة الشمس ، وغابات اشجار الجميز الصغيرة ، وجدران منازل القرية المبنية من الطوب واعناق الزجاجات ، والعجول التى تدور حول السواقى .

وكان الدليل ، واسمه ابراهيم ، يتحدث بين حين وحين بلغة انجليزية صحيحة ، وكان يستعد لامتحان التراجمة ، كما كان قد التحق بخدمة « جيمس وجيم » فى السنة الأولى لاقامة هذا الأخير فى نيساح .

قلت له وقد ابتدأت أشعر بميل اليه :

ـ هل تعرفه على حقيقته ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا تركت خدمته ؟

وتعجبت كيف أجابنى ابراهيم فى جراة وحزم :

ـ سله عن ذلك عندما تراه .

وترددت قليلا ثم قلت :

ـ كان « جيمس و . جيم » صديقى فنظر الى وقال :

ـ لقد أحسنت صنعا اذن بمجيئك .

ولم استطع بعد ذلك أن أحمله على اضافة كلمة واحدة الى ما قاله فى هذا الصدد . وصار يرد على أسئلتى بكلمات مقتضبة ، ولا يعرض لهذا الموضوع الذى يهمنى .

وعندما وصلنا الى نيساح قصدنا الى منزل « جيم » فلم نجده . وقال لى ابراهيم انه تعود منذ عامين أن يعبر النيل فى الصباح الى حيث الهيكل ثم يعود فى المساء . ولكنه مرت ثلاثة أيام لم يعد من الهيكل الى منزله .

لذلك قررت بالرغم من أن النهار قارب الزوال ان نعبر الى الشاطىء الغربى . وكانت ساعات المساء والليل اللذيذة قد أقبلت ، وهب نسيم رطب ومنعش ... وقد أحببت مياه النيل منذ عرفتها لأنها تشترك بالسر الذى يكتنف مصر . فقد كانت الآلهة فى العهود الغابرة تعبر هذا النهر الى هياكلها الطافية ذات السوارى المكللة بالأعلام . .

وعندما وصلنا الى الشاطىء الآخر ظهر لنا الهيكل بعيدا تحت أشعة الشمس الغاربة واجتزنا الطريق اليه فى ساعة من الزمن ، وقد ركب كل واحد منا حمارا .

* * *

كان الليل قد أرخى سدوله عندما وصلنا الى الهيكل فربط ابراهيم الحمارين وأخذت أنادى بالانجليزية ولكن أحدا لم يجب . وكانت أشعة القمر ترسل ضياء لماعا ينعكس على عمد الهيكل وجدرانه الخارجية وتبرز رسوم الآلهة ورؤوس الأسود وأبناء آوى والقصور . ثم دخلت الهيكل يتبعنى ابراهيم . وكانت القاعة الكبيرة فارغة الا من العمد القائمة ، ولا سقف يعلوها فكأنها أذرع ممدودة الى السماء للصلاة والضراعة . وأخيرا اكتشفت « جيمس و . جيم » فى احدى الردهات الصغيرة .

ولعله كان قد رآنا نقصد الهيكل . وسمع نداءاتنا ولكن كل مظاهر الرجل كانت تدل على التعجب والقلق . وكان واقفا أمام مكتب مليء بالأوراق والدفاتر ينيره مصـــباح صغير . وتذكرته حين رأيت عينيه السوداوين وانفه الكبير كانه منقار نسر . ولكن شكله كان قد تغير ، وهذا هو أمامي الآن عارى الجزء الأعلى من جسمه ، ويلبس سروالا قصـــيرا من قماش قاتم اللون ، وقد ضمر جسمه

ولم أتمكن من تحمل نظراته الشبيهة بنظرات الوحش عندما يطارده الصياد حين قال :

ــ من انت وماذا تريد

وفجأة راى ابراهيم فخفت معـانى الذعر البـــارزة فى نظـراته . وقـال ابراهيم :

ــ انك تعرفنى . لقد رافقت هـذا السيد الانجليزى الى هنا لانه يدعى انه من اصدقائك ، بعد ان قصـدنا منزلك فلم نجدك .

واخـذت الأمور تسلسل بعد ذلك واطمأن « جيمس » الى انى من ذوى النوايا الحسنة ، وحدثنى فى تلك الليلة عن أعماله واكتشافاته .

جلسنا نحن الثلاثة فى قاعة الهيكل الكبيرة . وكنت قد تعلمت فى الحـرب الاخيرة أن اتعرف من منظر الرجال على مدى التعب الذى اصابهم . وقـد بدا « جيمس » منهوك القوى . وقال لى انه مصاب وانه لن يعيش طويلا ، فقد استقرت رصاصة فى رئته أثناء الحرب فى بلاد الصـومال سنة ١٩٤٠ وانه لم يستطع اخراجها وانهـا الآن تسبب له ازمات بين الفينة والفينة .

ثم ذكر لى انه كان يحب الآثار المصرية وانه فى مســـتهل حيـــاته قبل أن يكون موظفا بشركة قناة السويس ارضاء لرغبـة والده ، وانه بعد الحرب بحث عن اية وظيفة تعيده الى مصر ، ولقى صعوبات فى سبيل ذلك بصفته انجليزيا . ولكنه لم يلبث أن عرض عليه العمل فى هيكل نيســاح فقبل فى الحال . وقـد انقضى عامان وهو فى كل يوم يجتـــاز النهر ، وضعف بصره لفرط انصبابه على كتابات الهيكل تحت اشعة الشمس أو فى الأماكن المظلمـة محـاولا حـل طلاسمها

فكم من ســاعات طوال قضـاها فى مواقف مختلفة لا يتصورها العقل حاملا بيده مصباحا وممعنا النظر فى الكتابات . بل انه كان فى بعض الاحيان مضطرا أن يمسك المصباح باسنانه .

وكانت هذه الحياة اخذت تروق له ، خصوصـا بعد أن اكتشف ان الحياة لا تتطلب فى الحقيقة سوى النذر اليسير من القوت لتظل متماسكة . حفنات من المـاء فى كل يوم وبعض البلح أو بعض الجراد . . . والانسان يستطيع أن يعيش بعد ذلك مائة سنة بين الرمال والصخور وتحت أشـعة الشمس المنبسطة على وجـــه الأرض ، كما كان الأمر فى بدء الخليقة .

واستطاب الحيـــاة على هذا المنوال حتى خيل اليه أنه اكتشف العرق الذى يصل الانسان بالطبيعة والذى قطعته المدنية .

وهكذا ألقى فى النيل كل ما كان من لديه من أدوية وعقاقير ، ثم رمى كل الأوراق التى تذكره بماضيه ، وقطع كل صلة بذويه ... حتى جواز السفر الذى يضمن له حماية دولته وبدل على شخصيته تزف به الى أعماق النهر حيث تذوب أوراقه شيئا فشيئا . أليست شعوذة غريبة تلك الأهمية التى نعلقها على رقم ؟ وهل يحتاج الانسان الى رقم فى مسلسلة الجوازات ليصبح رجلا ؟ وفى تلك الأثناء استغنى « جيم » عن خدمة ابراهيم لأنه — اى ابراهيم — أصبح أقرب الاثنين الى حياة المدنية .

وانخفض صوت « جيم » شيئا فشيئا لأنه أخذ يتحدث عن اكتشافاته ، وقال أنه لم يكن يرجو فى أول الأمر أن يلازمه التوفيق ، ثم دهش عندما أتم اكتشافه .

وقص « جيم » كيف أن فلاحا وجد مرة شكلا عجيبا مصنوعا من العاج فى موضع قريب من أساس الهيكل فأخذ « جيم » يحفر فى هذا المكان حتى وصل الى الكشف عن عدد من الحجارة المقطوعة فى شكل سهام ، وأوان من الفخار الأحمر والأسود ذات أشكال عجيبة ، وقوائم مقدسة . وكانت هذه الأشياء فى مذهبه تعود الى خمسة آلاف سنة ، أو قبل ذلك . ويعتقد ان ذلك العهد كان طور الانتقال الذى قام بين عهد التجارب الحجرية وظهور الفن فجأة فى العهد السابق للفراعنة . وهكذا صار فى مقدورنا ان نقول ان الفن الكامل الذى ظهر فى عصر الأسر الفرعونية الأولى كان نهاية منطقية لمدنية سابقة . واذن فقد وضح تاريخ الفن المصرى فى عصوره الأولى ولم يكن ظهوره المفاجىء اعجوبة كما كان يظن من قبل .

وأطرق « جيم » قليلا ثم قال وهو يبتسم ابتسامته القاتمة .

— لعله لم يكن من حقى أن أكشف عن هذه الظاهرة التى كانت الى الآن سرا خاصا بمصر وحدها .

فابتسمت لهذه الملاحظة ولكنه أشاح بوجهه عنى ثم استأنف حديثه فشرح كيف اكب منذ وصل الى هذا الكشف على وضع تقرير ليدل علماء القاهرة الى مدى أهمية اكتشافه . وكان الوقت يلح عليه بالاسراع لأنه كان يشعر بانحطاط قوأه ... وأخيرا انتهى كل شىء واراد أن يراجع للمرة الأخيرة تقريره على الأصول الحجرية فاقام أياما فى الهيكل لا يعود الى منزله حتى أتم عمله .

ثم قادنى الى حيث توجد بعض الآثار التى اكتشفها فلم اكد ألقى نظرة عليها حتى دفعنى الى خارج الغرفة وأغلق الباب على الكنوز التى تضمها ووضع المفتاح فى جيب سرواله القصير ثم التفت الى وقال :

— انه عجب حقا أن تكون قد وصلت اليوم لأنك لو أتيت غدا لما رأيتنى . فلماذا أتيت ؟ وما الذى أوحى اليك بالمجىء ؟ لا أعتقد بالمصادفة بل أرى أن الأمر كان يجب أن يكون كذلك .

فماذا وراء هذا ؟ .

وبدا عليه انه يفكر ويتألم .

— اللهم الا أن يكون ... ولكن من



يدرى ؟ .. لعلك جئت تحمل شرا ... أو انك اقبلت لبعض الخير . لم أكن بحاجة اليك .

ورأيت من جديد الذعر يستولى على نظراته ، كما رأيت ابراهيم يهز رأسه بطريقة خاصة لمحت فيها شيئا من الفهم وكثيرا من الشفقة .

قال « جيم » .

– يجب أن نذهب ، فلم يبق لدينا ما نفعله هنا . لنذهب فى الحال لأنى لا أريد قضاء ليلة أخرى فى هذا المكان . ولن اطمئن الا بعد أن أحمل وثائقى الى القاهرة واقدم تقريرى .

فاعترضت بصعوبة عبور النيل فى ساعة متاخرة من الليل . وقلت ان من الخير ان ننتظر حتى الصباح . فقال ابراهيم مترفقا .

– بل من الخير أن نذهب .

وركب « جيم » وابراهيم أحد الحمارين وركبت الآخر . واكتشف ابراهيم بين شجيرات القصب عند الشاطىء زورقا صغيرا ركبناه .

وكان « جيم » يحمل حقيبة صغيرة من الجلد ، ويظهر لونه أشد سوادا لما كان عليه فى ذلك الليل البهيم ، وقد ألقى على صدره قطعة من النسيج القاتم اللون . وكان الريح يصطفق على صفحات الماء ويمتزج صوته بتكسر الأمواج على جانبى الزورق . ولم ألبث أن شعرت بهدوء فى أعصابى ، بل لعلى لم أحس برقة ليالى النيل العجيبة وروعتها كما شعرت بها فى تلك الليلة .

ولعلى استسلمت لسلطان الكرى بعض الوقت لأنى استيقظت فجاة على رجة قوية انتابت الزورق ، ونحن على قيد امتار من الشاطىء واعقب هذه الرجة صوت صراخ « جيم » .

كان قد أتى بحركة طبيعية ليحفظ توازنه فانزلقت الحقيبة من يده ووقعت فى الماء ، فاندفع وراءها واخذ يسير فى النهر ويداه الى الأمام حتى بلغت المياه صدره ثم صار يهبط شيئا فشيئا حتى غمرته فاندفع ابراهيم وراءه وعاد به وقد أغمى عليه وأضجعه على ضفة النهر تحت أشعة القمر .

وانطلق الزورق يتأرجح فى النهر على غير هدى .

* * *

لا أزال عندما أذكر حوداث تلك الليلة وكيف نقلنا « جيمس و . جيم » آلى منزله الحقير بنيساح أحس بالعرق يتصبب من جسمى .

وارتفعت درجة حرارته وأخذ يهذى . وكان يكلمنا بدون انقطاع ويتفوه بعبارات غير مفهومة . ولكنى أدركت بعد قليل انه يريد ان يقول اننى مسئول عن ضياع وثائقه . ولم يكن هذا الاتهام حقيقيا ولكنى شعرت بأنى مجرم بعض الشىء . وقد كان فى هذا الحادث الذى حرم « جيم » من ثمار جهده الطويل جانب غير مفهوم يتمثل فيه القدر المحتوم . فلولا مجيئى فى هذه الليلة لسارت الأمور فى مجراها الطبيعى ووصل « جيم » سالما الى القاهرة وحقيبته مليئة بالأوراق والوثائق .

ومرت ساعات وأنا الى جانب سريره احدثه لأنى كنت أريد ان يفهم انى مخلص

فى عواطفى وتصرفاتى ، وانه لا ذنب لى فيما حدث . وكنت أطالع فى نظراته الهائمة معانى الحقد . ولكنى لم أعترف بالخذلان .

انحنيت على السرير واقبلت أحدثه كما يهدهد الطفل الصغير ، واجتهدت فى أن اشرح له بأن المصادفة جمعتنا لأستطيع ان أشهد بأن العمل الذى قام به كان عظيما ، وعلى كل حال فالأصول لا تزال موجودة فى مخزن الهيكل ، ولا يتطلب من صياغة التقرير من جديد سوى أيام معدودة . وأخذ يهدأ شيئا فشيئا .

وعند الصباح حملناه على عربة من العربات التى تجرها الأبقار الى مرسى ابهور فى انتظار وصول الباخرة النيلية لنقله الى القاهرة . وكان « جيم » قد فقد وعيه .

وكانت الألفاظ التى تفوه بها فى هذيانه تتردد فى ذاكرتى ، ونظراته الهائمة المنطوية على الذعر والحقد لا تبرح مخيلتى . وكان تيارا خفيا نقل ذلك الذعر الى نفسى فصرت أرغب فى وصول الباخرة فى أقرب فرصة لأخلص من ذلك الجو الرهيب . وأخذت أفهم الشعور الذى استولى على « جيم » عندما قال :

ـ لعله لم يكن من حقى أن أكشف عن هذا .

وشعرت كأنى رازح تحت وطأة لعنة . ثم اخذت ابدل هذه الأوهام ، وأحدث نفسى بأن هذا الاكتشاف كأنه لم يكن ، وأننا جميعا ضحية مصادفة غريبة .

واقبلت الباخرة . فشرعت أهز « جيم » وأصرخ فى أذنيه .

ـ استيقظ فالباخرة قد وصلت .

وفتح عينيه فى هدوء ونظر الى فاذا عليهما شبه غشاوة تدل على قرب فقدان الشعور ، وفهمت أنه أشرف على الموت . وأدرت رأسه نحو الباخرة فاذا نظراته قد تغيرت فجاة ولمحت فيها بريقا يدل على الفهم . ولكنى لم أكد ألحظ هذا البريق حتى انطفأ وأغمض « جيم » عينيه من جديد .

* * *

دفنا « جيمس و . جيم » بأسوان فى حديقة الدير الكاثوليكى ، وكتبت يوم وفاته رسائل الى أصدقائى بالقاهرة أنقل فيها اليهم بأطناب الكشف الذى انتهى اليه « جيم » فى الهيكل القائم على مشارف صحراء ليبيا . ولم ألتفت الى ما سيقوله عنى أولئك الأصدقاء ، ولعلهم سينعتونى بالحمق . ولكنى رأيت من واجبى نحو صديقى أن أفعل ذلك .

واقمت خمسة أيام فى أسوان . وكان المقيمون فى فندق كاتاراكت قليلى العدد . وكان الماء مثلجا « فى أكوابه فى حين بلغت درجة الحرارة فى الظل ٣٨ . وكان بواب الفندق الايطالى ينتظر بفارغ الصبر سفر آخر نزيل بالفندق حتى يغلق أبوابه ويقصد الى شاطىء البحر .

وانهيت مهمتى الصحفية فى سهولة ويسر . ولم أسمع بعد ذلك شيئا عن هيكل نيساح .

الموظف الجديد

بقلم: محمد البساطي

ابراهيم افندى رجل فى الاربعين من عمره ، يعمل رئيسا لقلم الحسابات باحدى مصالح الحكومة ، وهو رجل نشط ، متحمس لعمله ، عادة يصل الى مكتبه فى السابعة صباحا ، وحين يدخل الموظفون القلم يستقبلهم فى سخرية قائلا : ـ

« اخيرا حضر السادة . وانا أعمل هنا من ساعتين ، زيادة على العمل الذى آخذه معى الى البيت .. آخ .. هذا الكسل سيقضى عليكم .. » وقد تمر عليه الساعات وهو مستغرق تماما فى عمله ، ثم يرفع راسه فجأة ويدير عينيه فى الحجرة الواسعة وحين يرى الموظفين منهمكين فى عملهم ، يبتسم فى رضى وغبطة ويضرب المكتب بقبضة يده ويصيح : ـ

« ليس هناك أروع من عمل الحسابات .. لقد تعبت تماما ، اريد كوبا من الشاى » ثم ينهض فجأة ، ويذهب بنفسه الى البوفيه ليحضر كوب الشاى .

علاقته برؤسائه عادية ، فهم يثقون به ، ويتركون له التصرف بحرية فى كثير من الأمور غير انهم ، لسبب ما ، كانوا يشعرون بالامتعاض لحماسه الشديد فى العمل .

ومنذ ايام . عين موظف جديد فى القلم . حين رآه ابراهيم افندى شعر انه لن يحبه قط ، وقد فكر فى ذلك الامر فترة من الزمن ، وخرج بعبارة كان

يرددها لنفسه حين يقع بصره عليه : — « العمل .. عمل .. والعواطف الشخصية لا مكان لها هنا .. » .

ويوسف — الموظف الجديد — شاب ممتلىء الجسم ، هادىء ، له عينان واسعتان تبتسمان فى رقة ، قال عنه عزيز افندى ، وهو موظف عجوز بالقلم : —

« حقا انك لا تسمع صوتا لخطواته ، ولكنه حين يدخل الحجرة تشعر باحساس غامض ينبهك انه قد حضر ، ان فى عينيه وميضا غريبا يجذبك اليه .. » .

ومرت أيام . وشعر ابراهيم افندى ان شيئا غير طبيعى يجرى فى القلم .

فعادة — حين تأتيه النوبات الفجائية للحديث — كان الموظفون يرفعون رؤوسهم ، وينصتون اليه وقد يبتسم البعض له ، ولكنه هذه الأيام يجد الموظفين لا يهتمون بحديثه ، بل انه قد يدق المكتب بقبضة يده ، ويصيح معلنا اكتشافه لخطأ فى الحسابات ، ولكنهم يظلون فى عدم مبالاتهم وكأنهم لا يشعرون بوجوده بينهم .

وفكر ابراهيم افندى انهم لابد قد سئموا الحديث عن الحسابات ، ويريدونه ان يتحدث عن أمور أخرى كما يفعل يوسف معهم ، فقال لهم ذات يوم : — هل يستطيع احدكم أن يعطينى حلا لهذا الموضوع ؟ .. انا اريد شراء « فريجيدير » وليس معى نقود ، فماذا أفعل ؟

قال أحد الموظفين ويدعى عزت : — « وما دمت لا تملك نقودا ، فلماذا تشترى « فريجيدير » .

واحس ابراهيم فجاة بالضيق، وقال فى شيء من المرح المتكلف : — « ولكن زوجتى تريد « الفريجيدير » ولن تتركنى استريح حتى أشتريها .. » .

قال عزت بنفس النبرة الباردة : — « اذن اشتريها .

فصاح ابراهيم وقد شعر أن الحديث يخرج عن نطاقه المعتاد : — قلت لك ليس معى نقود » .

قال عزت : — اذن لا تشتريها » .

واحمر وجه ابراهيم افندى : ونهض من مقعده وصاح فى غضب : — « اريد أن أعرف السر فى طريقتكم هذه .. » .

رفع الموظفون رؤوسهم .. وتساءل عزت : — أية طريقة تعنى ؟

قال ابراهيم افندى ويداه تلوحان فى الهواء : — اعنى طريقتكم العدائية ناحيتى .. » .

فقال عزت : — ولكننا لا نعاديك .

قال أبراهيم أفندى ، وكأنه لم يقتنع بعد : — « كلا ، انا اعرف انكم تنظرون لى بعداء .. » .

رد يوسف ضاحكا : — « ولماذا يعادونك .. ؟ » .

سكت ابراهيم افندى ، وراح ينظر الى عينى يوسف الواسعتين ، ثم عاد الى مقعده فى صمت ، منذ أيام وهو يفكر فى ان يدخل فى نقاش مع يوسف امام

الموظفين ، ويريهم كيف يمكنه ان يسخر منه ومن آرائه . ولكنه في كل مرة يصمم ان يفعل ذلك يحس انه لا يستطيع ان يقول شيئا .

وذات يوم .. وكان عزت قد تشاجر مع احد الموظفين في قلم المراجعة .. دخل ابراهيم افندى المكتب ووجهه محتقن بالغضب .. قال في حدة : ـ يا سيد عزت .. علمت انك تعديت على شوقى افندى رئيس المراجعة .. وارجو ان تنهض الآن لتعتذر اليه .. » .

قال عزت في حنق : ـ وما شانك انت ؟

ـ شاني ؟ .. انى لا احب ان يحدث هذا من احد الموظفين عندى .. خاصة مع رئيس قسم كشوقى افندى .

ـ هذا امر لا يهمك في شيء .

ـ كيف تتكلم هكذا ؟ .. انى احذرك من هذا الطريق الذى تسير فيه هذه الايام .. وللمرة الأخيرة اقول لك يجب ان تعتذر للرجل .

ـ لن اعتذر .

وتدخل يوسف قائلا : ـ « انا أعرف يا عزت ما دمت قد اخطأت في حق انسان فمن الأفضل ان تعتذر اليه .. وصدقنى انك ستحرر نفسك حينئذ من شيء ثقيل » .

قال عزت : ـ انه ليس بانسان .. بل حيوان غبى .

قال يوسف : ـ أنا معك ان الغباء صفة قبيحة .. ولكن كل منا غبى في ناحية ما .

فقال عزت : ـ وما ذنبي انا لأتحمل منه هذا الغباء والجهل ؟ » .

واحس ابراهيم افندى ان ذهنه قد اظلم فجاة ، حتى انه فقد القدرة على تتبع المناقشة الى النهاية ولم يعد في تفكيره سوى شيء واحد .. « اذا لم يعتذر عزت لشوقى فانه سيرفع مذكرة بما حدث .. » وحين قرر عزت ان يعتذر لشوقى أفندى ، لم يدهشه ذلك ، ولكن الذى اثار دهشته حقا .. هو ذلك التعبير الغريب الذى بدا على وجه عزت .. كان واثقا في انه رآه من قبل ، ولكنه لا يذكر اين او متى ؟

قال له عزت : ـ انى ذاهب لأعتذر اليه .. ولكن برغبتى انا .

فرد عليه دون وعى : ـ لا يهم ... لا يهم ما دمت ستعتذر .

قال يوسف له بعد خروج عزت : ـ ان لم تقنع شخصا بما تراه حقا .. فمن الخطأ ان تجبره على ذلك .. لأنك ستصبح على غير حق » .

وتذكر ابراهيم فجاة انه رأى نفس التعبير الغريب من قبل على وجوه الموظفين حين ينصتون ليوسف .. وتحدث مع عزيز في ذلك الأمر .

فقال له عزيز افندى وهو يبتسم : ـ « لعلك تقصد ذلك التعبير من الاشراق والراحة الذى يبدو على وجوههم .. سأقول لك السبب في ذلك .. ان يوسف يا رئيسى العزيز .. لا ادرى كيف أشرح لك الأمر .. انه كمن يدق على عقولهم .. كلا ارجوك لا تنظر الى

بشك هكذا .. فانا كما كنت من قبل .. لم اتغير .. انى عجوز .. لم يعد من السهل ايقاظ عقلى .. ولو ان احدهم دق عليه لتهشم .. حقا انه قد يستيقظ .. ولكن لوقت قصير .. يطل فيه على الناس بدهشة .. ثم يعود لاغفاءته الطويلة .. انه اعتاد على ذلك حتى أصبح من غير المعقول ان يفكر فى غير ذلك » .

قال ابراهيم : ــ انك عجوز مخرف » .

فقال عزيز .. وقد ازدادت ابتسامته : ــ ربما .. ولكن .. هل رأيت كيف يحبه الموظفون .. وينصتون لحديثه .. هل رأيت كيف جذبوا مكاتبهم حتى التصقت بمكتبه » .

ــ يبدو اننى اصبحت رئيسا لجماعة من المخبولين » .

فهز عزيز رأسه ــ ويفعل ذلك عادة حين يضحك ــ وربت على ذراع ابراهيم قائلا : ــ ليسوا جميعا .. فأنا مثلا لا ازيد عن كونى متفرجا يرى ما يجرى امامه .. ولكنه راض عن حياته .. خاصة واننى سأحال الى المعاش بعد سنة .. وعندك ايضا بطرس .. واذا أردت رايى .. فانه رغم صغر سنه يبدو كالفأر المذعور .. أما الآخرون .. فكما ترى ..

وفكر ابراهيم .. وهو ينقر بأصبعه على المكتب : ــ « يبدو اننى لم أعد أفهم شيئا .. انهم كما يقول عزيز يبتعدون عنى واحدا واحدا .. لا أدرى كيف يجذبهم هذا اللعين اليه .. لم يبق من اعتمد عليه سوى بطرس وعزيز .. انهما بحق شخصان واعيان .. لا يهملان عملهما .. ورئيسهما .. يجب ان أفعل شيئا .. ولا اترك الحال يسوء أكثر من ذلك » .

وذات صباح . وكان الموظفون ينصتون الى يوسف وهو يتحدث ، بينما جلس عزيز خلف مكتبه ، يبتسم من حين لآخر ، وبطرس بالقرب منه .. يرقب كل شىء فى المكتب ، والقلم يرتعش فى يده ، وعلى وجهه تعبير قلق .. كأنما يتوقع حدوث شىء .. وابراهيم أفندى صامت .. لم يكن يعمل ، بل كان يتابع حديث يوسف ، ويدبر فى رأسه خطة الهجوم .. وفجأة دق المكتب بقبضة يده وصاح : ــ « هذا أمر لا يحتمل .. انكم تهملون



عملكم .. وتضعوننى فى موقف حرج مع الرؤساء .. ان هـــذا .. اوه .. سأقدم مذكرة الى سيادة المراقب .. ليس هناك غير ذلك » .

قال أحد الموظفين : ــ وماذا تظنــه سيفعل ؟

واحمر وجه ابراهيم : ــ « اوه .. انه درجة أولى .. يفعل الكثير .. هناك جزاء بالخصم من مرتبك .. وهنـــاك الفصـــل من المصلحة .. والطرد الى جهنم » .

ثم ضحك فى عصبية .. وراح يكتب المذكرة .

وخيم الصمت على المكتب .. وهبت نسمة خفيفة من الهـــواء .. بعثرت الاوراق امام عزيز افنـــدى ، فانحنى يجمعها . ولا يدرى لماذا شعر بالرغبة



فى ان يضحك .. غير أن وجه ابراهيم الغاضب ، جعله يمسك فجـأة عن الضحك .. وحين رفع راســـه ورأى وجه بطرس .. قال فى دهشـــة : ــ بطرس .. ماذا حدث ؟ .. هل تشعر بشىء ؟

وانتفض بطرس قائلا : ــ هيه .. ماذا ؟ .. ماذا تقول ؟

ــ بعض الماء .. احضروا له قليلا من المـــاء » .

ــ ولماذا .. اننى .. اننى .

ــ ان وجهك يا بنى شاحب .. دع القلم من يدك .. لا تعمل شيئا .. وارخ جسدك تماما » .

ــ ولكن .. اننى بخير .

والتفت ابراهيم افندى وقال لعزيز فى حزم : ــ دعه يعمـــل .. انه ليس منهم » .

فقال عزيز : ــ ولكن .. انظر الى وجهه .

فصاح ابراهيم فى غضب : ــ .. قلت لك دعه يعمل .. انه بخير » .

ثم نظر الى بطرس وقال له فى صوت حاول أن يجعله هـادئا : ــ هـــذه المذكرة ضدهم .. هم فقط .. هل فهمت ؟ » .

وحنى بطرس راســـه ، كأنما يخفى الفرحة التى بدت فجأة على وجهـــه . بينما كانت أصابعه تعبث فى شـــعره بعصبية .

ومر بعض الوقت . ونهض ابراهيم

افندى . وخرج من المكتب كالزوبعة . ورفع عزيز رأسه ، ونظر الى يوسف ولدهشته .. وجده لا يزال يبتسم .

ومضت ساعتان . ثم فتح باب المكتب ودخل المراقب العام . وخلفه ابراهيم افندى ، وذراعاه معقودتان على صدره ، وقد بدا على وجهه طابع الشخص المقبل على الخطير من الأمور .

ورفع الموظفون رؤوسهم .. وحاول بطرس أن يهب واقفا ، وحين وجد الآخرين ما يزالون جالسين ، بدا عليه شيء من التردد .. وظل شبه واقف وجذعه محنى على المكتب ، وكأنه لا يدرى ما يفعله بعد ذلك .. فى حين نهض عزيز افندى وهو يحكم الجاكتة حول جسده ، غير أن المراقب أشار اليه أن يجلس .. فراحت قامته تتراخى شيئا فشيئا على المقعد .. فى وضع قلق .. مترقب ، وابتسامة باهتة .. لا لون لها تملأ وجهه .. غير أنه فى براعة يحسد عليها استطاع أن يكسب وجهه التعبير المشرق اللائق بمثل هذه المناسبة انه لم يقابل المراقب فى حياته سوى خمس مرات ، وفى كل مرة كان يخرج فيها من عنده . كان يجتاحه شعور غريب من الزهو .. والارتباك .. ويظل بعض الوقت يفكر فى حماس .. أنه انسان طيب ، ومستقيم ، وانه سيعتنى بأولاده ويعلمهم ، ولو تصادف وقابله أحد زملائه .. فانه يهلل فى وجهه : ــ

يا سعادة البيه .. أوه يا سعادة البيه .. » .

ويروح يقص عليه مقابلته مع المراقب، وان المراقب يثق فيه . ويطلب منه ان يفعل كذا .. وكذا .. ودائما كان يعقب هذه النوبة شعور آخر مفعم بالمرارة والاستسلام ، فيظل بقية النهار صامتا .. مقطب الجبين .

قال المراقب فى صوت هادىء : ــ سمعت ان اشياء غريبة تحدثهنا.. ».

ثم سعل .. وصمت .

قال ابراهيم افندى : ــ « يا سعادة البيه .. انى اترك الأمر بين يديك .. فانا لم اعد احتمل اكثر من ذلك .

قال المراقب : ــ أعرف .. أعرف.. اسكت انت .. » .

وابتعد ابراهيم افندى ، واسند ظهره لحافة مكتبه .

قال عزت : ــ اننا لا نعرف عن اى شيء تتحدث ؟

قال المراقب وهو يخرج منديلا ابيض من جيبه : ــ كلا يا بنى .. انك تعرف جيدا ماذا أقصد » .

ثم تمخط ، ونظف طاقتى أنفه من الداخل .. وظل المنديل فى يده ..

ــ « يبدو أننى اصبت بالبرد .. آ .. آ .. آتش .. ياالله .. اننى أصبت فعلا .. لعنة الله عليكم .. انكم دائما السبب فى كل شيء .. افهموا جيدا .. اننى مرهق بالعمل .. وهذه المسئولية الضخمة على عاتقى .. ثم اسمع أنكم تهملون عملكم .. لتقضبوا الوقت فى حديث فارغ .. لن ينفعكم .. بل سيضركم » .

وشعر فجاة بالرغبة فى السخرية ،

وهذا شيء معروف عنه في المصلحة ، قال وقد تقوس حاجباه في خبث : —

مثل هـذا الحديث الذي يثير اهتمامكم .. لابد انه مثلا عن النساء والزواج .. والحقيقة انه موضوع مثير وانتم معـذورون .. ان لي ابنـا في السادسة عشر من عمره .. امسكت به يحتضن الخادمة في دورة المياه .. » .

قاطعه يوسف قائلا : — « ولكن .. انهم يقومون بعملهم كاملا .. ولو تحدثوا في شيء .. فهذا لانهم يبحثون عن ..

صاح المراقب في غضب : — اجبني اولا .. من انت ؟ .. وماذا تفعل هنا ؟

— انا يوسف .. الموظف الجديد .

— ها .. ها .. اذن فهو انت الذي يتحدثون عنه .. يوسف بن يعقوب عليه السلام .. اليس كذلك ؟

لعنة الله عليك .. ماذا تظن نفسك؟ .. هل انت حقا ابن يعقوب ؟ » .

وابتسم يوسف .. وراحت عيناه تحملقان في المراقب في صمت .. واحمر وجه المراقب وصاح : — « هذا البرد اللعين .. اسمع يا سيد يوسف .. انك تحشر انفك دائما فيمـا لا يهمك .. والرؤساء غير راضين عنك .. وحديثك مع الموظفين يعطل العمـل .. لذلك قررنا .. ومعذرة .. فالعمل قبل اي شيء آخر .. قررنا ابعادك من المكتب .. ولم نجد غير « الدفترخانة » .. فهذا تتسلم عملك هناك .. » .

قال يوسف وقد شحب وجهه : — هل تقول الدفترخانة ؟ » .

— نعم .. وستجد هنـاك دفاتر وسجلات من ايام نوح .. انتهى العمل فيها .. تنتظرك في شغف على الأرفف .. لتحكي لها عن الحرية والكرامة .. دون ان تعطل عمل غيرك ؟

— هذا عمـل طيب .. كل ما اود قوله .. هو أن الموظفين هنا لا يهملون عملهم كما تظن .. » .

— أعرف .. أعرف .. ولكن العمل ليس كل شيء .. هناك الاحترام .. والاخلاق .. ان بعضـهم كان يقابلني فلا يحييني .. ويمط رقبته الى اعلى وكأنه يتحداني .. هل تصدق ان هذا حدث بعد مجيئك هنا ؟ .. وابراهيم افندي يقول انهم اصبحوا فجـاة يكرهونه .. ويعادونه .. على العمـوم انك لست شقيا تماما .. ارجو ان تنفذ ما قلته لك .. » .

واستدار المراقب ، وقبل ان يخرج التفت نحو بطرس وقال : — « لقـد سمعت انباء طيبة عنك .. ارجـو أن يفعل الآخرون مثلك » .

طفح الدم فجأة على وجه بطرس ، وارتبك ، وتصبب العرق من جبينه .. ولم يقل شيئا .

ومرت برهة ، والموظفون يحملقون في صمت نحو باب المكتب، وكأنهم يتوقعون عودة المراقب مرة اخرى . ثم نهض عزت وبصق على الأرض .. وقـال : — « افتحوا هذه النوافذ .. ان رائحته تملأ الحجرة » قال ابراهيم في غضب:— ياسيد عزت .. انا لا اسمح لك بأن تتكلم بهذه الطريقة عن .. » .



انفجر عزت صائحا : ــ لا اسمح .. لا اسمح .. لا اسمح .. لقد مرضت.. وسئمت كل شيء .. هل تفهم ؟ » .

وفى اليوم التالى . حضر ابراهيم أفندى الى المصلحة . وحين رأى مكتب يوسف خاليا ، والموظفين منهمكين فى عملهم ، شعر ان كل شيء قد اصبح على ما يرام ، وعاوده حماسه القديم للعمل، وبدت الغبطة على وجهه .. وكأنه تخلص من هم ثقيل .

ومر بعض الوقت . ثم نهض احد الموظفين ، وحين رفع ابراهيم راسه فى تساؤل .. قال الموظف : ــ انى ذاهب لأشرب » .

وبعد برهة ، نهض موظف آخر .. وخرج ، ثم تبعه عزت وهو يتثاءب ، ويتمتم : ــ ان جو الغرفة .. خانق .. انى ذاهب لدورة المياه » .

ومضت ساعة . ولم يكن قد بقى فى المكتب من الموظفين سوى بطرس وعزيز .. وموظف آخر قال له ابراهيم : ــ

الا تريد أنت الآخر ان تشرب ؟ » .

فرمى الموظف القلم من يده ، ونهض قائلا : ــ بالطبع .. وهل هناك من يكره الماء ؟

وبعد خروجه ، التفت ابراهيم الى عزيز وصاح ووجهه يرتعش من الغضب : ــ « أرأيت ؟ .. لقد ذهبوا اليه فى الدفترخانة .. انا لا أفهم ــ ودق بقبضة يده على المكتب ــ كيف يستطيعون البقاء معه هناك ؟ .. اقسم بالله وأبى .. سأوقع على كل منهم جزاء بثلاثة ايام » .

وقفل ادراج مكتبه فى عنف .. واندفع خارجا .

قال عزيز فى صوت خافت : ــ انه ذاهب الى المراقب . » .

ثم ادار بصره فى المكتب .

كانت المكاتب خالية . هادئة ، والأوراق مبعثرة فوقها فى فوضى كئيبة ، واشعة الشمس تنعكس على جدرانها البنية ، وكرسى ابراهيم افندى لا يزال يهتز ، وبطرس يعض طرف القلم بأسنانه .. وعيناه تحملقان فى كل شيء .. وخيل لعزيز أنه يرى هذه الأشياء لأول مرة ، لقد بدت أمامه

غريبـــة .. غير مألوفة .. والتفت الى بطرس وقال مشيرا بيده الى المكاتب : ـ « مثل الآلة التى تتوقف عن العمل .. لا فائـدة منهـــا .. لـم لم تذهب معهم ؟ . » .

اخرج بطرس القلم من فمه ، واجاب مبتسما : ـ « اذهب .. اين ؟ .. تقصد الدفترخانة .. انها كالسجن » .

حنى عزيز رأسه : ـ « فعلا انهـــا مكان عفن .. ان كلا منهم سيخصم منه ثلاثة أيام . » .

ومر باصبعه على تجاعيد وجهه ، وقال فى تفكير : ـ « هل تعرف ؟ .. انه لم يصدر ضدى يوم جزاء واحد ..

وهل تعرف انى دفعت ثمنا كبيرا فى ذلك ؟ .. من التملق .. والتذلل .. ولولا ذلك .. اوه .. انه عمر طويل .. حياة كاملة .. » .

قال بطرس : ـ « الحياة دائمـــا هكذا . » .

قال عزيز منفعلا : ـ دعك من هــذا الكلام السخيف .. اسمع سأقول لك نصيحة تنفعك .. اقرا كثيرا .. حتى تختفى ملامح الذعر والانكمـــاش التى تبدو على وجهك .. وضع فى ذهنـــك انه يمكنك ان تاخــذ حقك كاملا .. آه .. لو تعود بى الحياة عشر سنين فقط .. » .

قال بطرس : ـ وماذا تفعل بها ؟ » .

قال عزيز ، وعينـــاه تلمعان : ـ « افعل بها ؟ .. افعل .. لا أدرى .. اقسم بالله انى لا أعرف .. » .

وعاد ابراهيم أفندى .. ظل لحظة واقفا بالباب .. يدير عينيه فى المكتب ، ثم استقر نظره على وجه عزيز ، خيل اليه انه لمح تعبيرا ساخرا فى عينيـــه العجوزتين .. قال وهو يتجـــه الى مقعـــده : ـ لم تنظـــر الى بعـــداء هكذا ؟ » .

ضحك عزيز وقال : ـ « عداء ؟ .. كيف اعاديك ؟ .. وليست لى القدرة على ذلك .. » .

وسكت برهة ثم عاد يقول : ـ « لم يبق سوى عام .. عام واحد .. واحال الى المعاش .. مدة خدمة نظيفـــة تمـــاما .. ماذا يريد الانســـــان غير ذلك ؟ . » .

قال ابراهيم وهو ينقر بأصبعه على المكتب : ـ « المراقب .. وافق على توقيع الجزاء عليهم .. » .

مرت برهة صمت .. لم يكن يسمع فيها سوى انفاس بطرس .. ونقرات ابراهيم على المكتب .. ثم عاد يقول وقد بدت على وجهه سحابة خفيفـــة من الغضب : ـ

« كان يجب ان يحدث ذلك .. لم يكن هناك طريقة اخرى .. فالعمـــل اولا وقبل كل شىء .

قال عزيز : ـ « هو ما تقول .. العمل .. وماذا حدث بعد ذلك ؟ .. كما ترى .. المكاتب خالية ..

قال بطرس : ـ وماذا فى ذلك ؟ .. اننا نستطيع نحن الثلاثة أن نقوم بعمل المكتب » .

ضم عزيز شفتيه وعاد الى عمله . قال بعد برهة قصيرة : ـ

« بالطبـــع يا بنى نســـتطيع .. ونســـتطيع أن نرمى بانفســـنا من النافذة !! » .

٤ - د . هـ . لورانس

عبقري ولكن ..

د . طه محمود طه

يمثل ديفيد هربرت لورنس فى القصة الانجليزية الحديثة أخطر ثورة يمكن لكاتب ان يقوم بها فى قصصه ضد العقل والمنطق والتقاليد وهذه الثورة فى أسلوب قصصه وموضوعها تعادل فى أهميتها الثورة على طريقة العرض التى قامت بهـا فيرجينيا وولف ودوروثى ريتشاردسون وجيمس جويس فى القصة واليوت وازرا باوند فى الشعر . ويعتبر لورنس ، رائد الثورة على العقـل ، من عباقرة القصة فى القرن العشرين وسيظل اسمه خالدا وسيستمر الجدل والنقاش حول شخصيته وقصصه . فقد تعرض لمدح شديد ونقد لاذع لأسباب قد لا تتعلق فى بعض الأحيان باتجاه الادبى بل لأنه اصبح المتكلم بلسان الذين ثاروا على حضارة القرن العشرين الميكانيكية . وربما نجد فيما كتبه فى المستقبل ، كما وجدنا فى قصـائد بليك وجيرارد مانلى هوبكنز ، تسجيلا للقوى الخفية التى تشكل وتسيطر على لسان القرن العشرين . وربما كان لورنس أول من نادى بتركيب فلسفى عملى يمكن الجسد والروح ، والرجل والمرأة ، من العيش فى توافق وانسجام ؛ وربما ننظر اليه على انه يمثل الرومانتيكية الجديدة فى الأدب فى احتكاكها واتصـالها بالأرض والطبيعة وآخر من يغنى بملذات الحياة الحسية التى تعمل على اضعافها حياة المدن والآلة .

وقد كانت فلسـفة شوبنهور ونيتشه رائجة فى عصره ولها قطعا اثرها فى تفكيره فقد شجع هؤلاء المفكرون الديناميون ايمانه بالحيوية والفردية . وربمـا كان لزوجتـه الالمانيـة اثرها فى ايمانه بميتافيزيقا « أوتو وينجر » الذى كان كتابه « الجنس والشخصية » مرجعا فى العشر سنوات الأولى من القرن العشرين ، فتحليله للعلاقات البيولوجية والنفسية والميتافيزيقية بين الجنسين كان له أثر فعال فى فلسفة لورنس الحيوية . وأهم من العوامل الفكرية والفلسفية التى تساعدنا فى تفهم وتقييم أعماله فهناك العوامل الشخصية ؛ فقد كان للبيئة التى نشأ فيها لورنس اثرها فى حثه على التعبير عن رؤاه وتجاربه بطريقة غريبة عنيفة .



لقد عاش لورنس معظم حياته يتصارع مع الأفكار والعواطف التى تسلطت عليه والتى كانت تهزه هزات عنيفة دائما فلم تترك له وقتا كافيا لكى يتمكن من عرضـها عرضا فنيا منظما فى قصصه . وفى احدى رسـائله يقول انه كان غالبـا ما يبدأ فى كتابة قصة جديدة قبل أن ينتهى من الأولى ، وحتى عندما كان يكتب قصة جديدة كان لا يدرى عن خاتمتها شيئا . فقد كانت حيويته وعبقريته أكثر من عبقرية فورستر أو الدوس هكسـلى ، وفاق احساسه بالحياة والعواطف معظم معاصريه ووجد لها متنفسا فى الشعر أيضا .

لقد كان لورنس كاتبـا دائما فقصصه القصيرة وحدها تملأ عدة مجلدات وله كتب رحلات وثلاث مسرحيات كما كتب فى علم النفس . وقد يكون لورنس قد بعثر قواه فى كل اتجاه كما يقول هكسلى عنه ولم يستطع ان يضفى على قصصه نظاما فنيـا ويقدمها لنا فى شكل مصقول ، فقد استمر الصراع بين لورنس الفنان ولورنس الانسان حتى وفاته . وقد دفعـه هـذا الصراع وهذه الزوابع والعواطف

التى كانت تهز كيانه الى السفر والسعى المتواصل وخاصة بعد عام ١٩١٩ ـ فقد حاول أن يغادر انجلترا دون نجاح أثناء الحرب العالمية الأولى ـ الى صقلية واستراليا والمكسيك ـ وقد اكتسب لورنس الكثير من التجارب أثناء رحلاته هذه وامتص رحيق حضارات مختلفة ولكنه لم ينجح فى الوصول الى ما كان يصبو اليه حتى وهو على فراش الموت فى عام ١٩٣٠ .

فلسفة لورنس :

كتب لورنس فى احدى رسائله يقول : « ان الاختلاف بين الناس ليس اختلافا طبقيا ، ولكنه اختلاف فى النفوس . فمن الطبقة المتوسطة يحصل الانسان على الافكار فقط ، ومن الناس العاديين ، على الحياة ذاتها ، على الدفء » والغاية من الحياة ذاتها عند لورنس هى وصول كل فرد الى الاكتمال . والوجود هو الغرض الأساسى فى الحياة وليست المعرفة . والبحث فى قصصه من « الطاووس الأبيض » حتى « الرجل الذى مات » هو بحث عن تعريف لطبيعة الانسان ثم حثه على الازدهار والنمو والكمال . وهذا هو الهدف الذى كان دائما يسعى اليه ، وكل ما عدا ذلك كان غير ذى بال ـ البيئة والطبيعة والأشياء والممتلكات . فكلها لا تعنى شيئا بالنسبة للفرد ولكنها تساعد الانسان فقط على الاكتمال ومعرفة النفس . واذا أراد الفرد أن يكتمل فلابد له بطريقة أو أخرى أن يتعلم التعاطف والاتصال بآخرين . فاللاشعور عند الفرد ، كما كتب لورنس فى هجومه على فرويد فى كتابه « التحليل النفسى واللاشعور » ، يتطلب عالما خارجيا لكى يتمكن الفرد من تنمية ذاته ؛ وبالتالى فعلينا أن نتخلى من فكرة تجريد الذات ، ويجب أن يكون للذات مجال مادى تتحرك فيه ولابد أن يكون هناك فرد آخر لكى تتحقق هذه العلاقة . ولهذا أطلق هكسلى على فلسفة لورنس هذه : « المادية الصوفية » ويطلق عليها لورنس « الاستقطاب » ، فالفرد ينمو ويكتمل عن طريق عملية مد وجذر استقطابية ، عن طريق الحركة المستمرة المتغيرة بين الفرد وفرد آخر ، وهى عملية تجاذب وتنافر مستمرة بين قطب سالب وقطب موجب . وفى محاولتنا للوصول الى هذا التعادل نجد أن العقل أصبح معطلا ، فهو لا يتأثر ولا يؤثر ، ونجد أنفسنا فى طريق مسدود لأن الوعى لا يمثل هدفا ، فهو وسيلة تساعدنا على الاحتكاك بالعالم الخارجى فقط أو وسيلة للوصول الى ما يطلق عليه لورنس « الاكتمال التلقائى الخلاق للفرد » . والعقل فى فلسفة لورنس ليس مرشدا أو هاديا ولهذا يجب علينا أن نكون على علم بالطرق العديدة التى يعبر بها لورنس عن قصور العقل ـ الشجرة فى قصته « أبناء وعشاق » ، والكاتدرائية والخيول الجامحة فى « قوس قزح » والثلج الأبيض الناصع والتماثيل الافريقية الخشبية والمهرة فى « نساء عاشقات » والديك الذى يحاول التحرر والانطلاق والهروب فى قصته القصيرة « الرجل الذى مات » . وهذه الظواهر تعيش حياتها ويضعها لورنس فى قصصه ويبرز علاقتها بشخص من شخوص القصة ثم بعد ذلك يقارنها بالقصة كلها . وعندما يتم له هذا نشعر بوجود عالم آخر أعمق وأقوى من أى عالم يستطيع العقل أن يصوره أو يدركه وتتلقى هذه الايحاءات كلما ظهر هذا الرمز فى القصة . وتلعب هذه الرموز دورا قويا دناميا غامضا تتسلل بواعثه من العقل الباطن واللاشعور ، من تلك الطبقات العميقة والعوالم الخفية التى يعتقد لورنس انها المكان الوحيد الحقيقى الذى يعيش فيه الانسان والتى يجب الوصول اليها اذا كان لهذا الاستقطاب أن يحدث بين فرد وآخر . ويقيس لورنس اكتمال الفرد بقدرته على الاندماج باللاشعور الأولى مع فرد آخر وبهذا تكتمل « رجولته » ويحقق وجوده . فالحب الحقيقى عنده ينتج عن استقطاب يدخل فيه الفرد فى حالة مد وجذر مع فرد آخر ويصبح التلاق بعده على كل مستويات الحياة .

ومن الواضح أن لورنس لم يكن يتكلم عن فلسفة جديدة ، فقد كان فورستر ينادى من قبله بفلسفة مماثلة لا دخل للعقل الواعى فيها كمحرك لطاقة حيوية وحضارية هائلة وشخوص فورستر النسائية المرهفة الحس دليل على ذلك . فلدينا مثلا مسز ويلكوكس فى « هواردز اند » ومسز مور فى « رحلة الى الهند » . ولكن لورنس يفوق فورستر وغيره ممن ينادون بهذا التعاطف والاخاء

فى التنوع والعمق . وفى القوة التى يعـالج بهـا شخصياته ومواقفه وفى قدرته على اثارة تلك القوى الغامضة فى جوهر الاشياء وبسط قضيته بطريقة سحرية شاعرية وخلق جو مناسب لها . ومن هـذه المواقف ذلك المنظر الذى ترقص فيه « أنا » عارية وهى فرحة بالحياة التى فى أحشائها ، والخيول التى تهاجم « يورسولا » فى « قوس قزح » ؛ والمنظر الذى ترقص فيه جودرون أمام الابقار ، وعندما يحاول « بيركين » أن يبعثر قرص القمر الفضى المنكس على صفحة مياه البحيرة الهادئة بينما تراقبه يورسولا فى « نساء عاشقات » .

وعندما فرغ لورنس من كتابة قصصه الأولى كان اهتمامه بالعـالم الخارجى قد فتر وبدأ يوجه اهتمامه الى جـوهره ، كان يحاول ، كما تقول كاثرين كارزويل أن يصل الى ما دون نهر الحياة ذاته . ولهذا قل اهتمامه فى قصصه بحياة شخوصه فى العالم المادى من حولهم وأخذ يستكشف ما يدور داخل عوالمهم العاطفية والروحيـة وعندما ضعفت قبضته على شخوصه أخذ يتصارع معهم وخاصة من كان منهم يرفض الامتثال لعواطفه ويلقى بنفسـه فى دوامة الحياة المادية من حوله أمثال جيرالد فى « نساء عاشـقات » وسكربنسكى فى « قوس قزح » . ومن هنـا ينشأ التشابه الكبير فى قصصه بين شخصياته فلا فوارق واضحة بين شخصية واخرى ومعظمها تشبه لورنس الى حد ما .

وقد دفعت عبقرية لورنس وقدرته على التعبير عن حالات نفسـية جديدة الكثيرين الى اعتباره عبقريا فذا ؛ وربما ذهبوا ، فى تقييم أعماله الى أبعد من ذلك ، فهم يضعونه فى قمة القصاصين الانجليز أو على راسهم جميعا . ولكن هذا الاعتقاد كما يقول « دافيد ديتشيس » مبنى على التغاضى عن نقط الضعف فى قصصه وقصور نظرته أحيانا . فلقد طور لورنس استعمال القصة وجعلها أداة لا لوصف مجتمعه وصفا واقعيا واجتماعيا بل لوصف حالات شـعورية نفسية وأصبحت القصة سجلا لتلك الرؤا القوية الأصيلة للحيـاة وعرضا رمزيا شاعريا للحقائق الكامنة فى جوهر الفرد وفى العلاقات الشخصية . ولكننا نجد الى جانب هـذه النبضات القوية وهذه الهبة الرائعة لوصف التجارب الخاصة والتفسير الرمزى قتامة مربكة وتكرارا مملا محموما لرموز معينة تتسلط على لورنس من آن لآخر دون أن يكون لهـا اتصال عضوى بالقصة ذاتها . فماذا مثلا يعنى لورنس بالفصل الخامس عشر فى قصته « قوس قزح » ذلك الفصل الذى يطلق عليه « مرارة النشوة » ؟ ففى هذا الفصل تمر يورسولا وسكربنسكى بأزمة عاطفيـة تنتهى بعـدها العلاقة التى بينهما . وتحاول يورسولا أن تهب نفسها لسكربنسكى وتنظر الى القمر باشعته الفضية وتقبل على مغازلة سكربنسكى فى عنف ولكنها تسيطر على عواطفها وتنساب دمعة من عينيها وهى تنظر الى القمر ، ويتراجع سكربنسكى فى خوف : فلقد أصبحا « اثنين من الأموات » . وعندما يقابلها فيما بعد يسألها : « لماذا تخليت عنى ؟ » فترد عليـه : « لقد تخليت أنت عنى ـ لقـد تركنا بعضنا » . والقارىء الذى يتتبع حوادث القصة بصبر ومتعة سيصاب حتما بخيبة أمل عندما يصل الى هذا الفصل . ونقابل نفس الأزمة فى قصته « نساء عاشقات » عندما تصل الى الفصل الأخير وبعد موت صديق بيركين نقرأ الحوار التالى بين يورسولا وبيركين :

ـ « هل كنت فى حاجة الى جيرالد ؟ سألته ذات ليلة .

ـ نعم ، قال .

ـ ألا تجد فى ما يكفيك ؟ سألته .

ـ كلا ، قال : تكفينى فيما يتعلق بالمرأة . فأنت كل النساء بالنسبة لى . ولكنى كنت أود رجلا صديقا ، دائما ، كما أصبحت العلاقة بينى وبينك .

ـ ولماذا لا تجد فى الكفاية ؟ سألته . انى أجد فيك الكفاية .

ولا أريد أحدا سواك . ولماذا لا يكون الأمر كذلك بالنسبة لك ؟ .

ـ اذا كنت لى كان فى استطاعتى أن أعيش حياتى كلها دون حاجة الى انسان آخر ، الى أى صداقة

خالصة . ولكن لكى تكون الحياة كاملة ، حياة سعيدة حقا ، فانى كنت أريد ارتباطا دائما مع رجل أيضا : نوعا آخر من الحب .

ـ انى لا أصدق هذا ، قالت . ان هذا عناد ، نظرية ، انحراف .

ـ حسنا ..

ـ لا تستطيع أن تحصل على نوعين من الحب . ألا بد من هذا ! .

ـ يبدو أن هذا غير ممكن ، قال . ومع ذلك أود لو كان من الممكن .

ـ لا يمكنك هذا ، لانه سيكون باطلا ، مستحيلا ، قالت .

ـ أنا لا أومن بهذا ، أجابها . »



ونحن لا نستطيع أن نغتفر له هذه الأخطاء لأنها تقفز الى عقلنا عند الحكم على أعماله وتقييمها . وكتاب « ريتشارد إلدنجتون » عنه يعرض علينا الرأى السائد فى أعمال لونس ، وعنوان الكتاب « صورة عبقرى ولكن ... » ويقول المؤلف فى مقدمته : انى أطلق على هذا الكتاب « سورة عبقرى ولكن ... » لسببين : الأول وهو لأن الكتاب صورة وليس سيرة مفصلة كاملة كان من الممكن أن تصبح أطول من هذا مرة أو مرتين لو وجدت المادة ، والسبب الثانى هو أننى لاحظت عند فحص الكتب والخطابات التى كتبت من لورنس انه فى مكان منها أو آخر استعمل كل ناقد تقريبا التعبير التالى : « كان لورنس بالطبع رجلا عبقريا ، ولكن ... » وكان اهتمامهم بكلمة « ولكن » أكبر من اهتمامهم بكلمة « عبقرى » . وقد التصقت كلمة « عبقرى » بلورنس دائما وذكرها أول ناقد لاعماله وهو « فورد مادوكس هوفر » وآخر المجلات الأدبية التى كانت تكتب عنه عند وفاته عندما أطلقت عليه « العبقرى المغرق فى الجنس » . واذا كانت العبقرية تعنى مجرد تمتع الفرد بحيوية خلاقة فلا جدال فى أن لورنس كان يتمتع بحيوية دافعة خلاقة كما تشهد بذلك المقدمة التى كتبها ألدوس هكسلى لرسائل لورنس والتى يقول فيها : لقد كانت هبة لورنس الخاصة هى حساسيته الفائقة لما يطلق عليه الشاعر وردزورث « الحالات الغامضة فى الوجود » .

فقد كان دائما يشعر بوجود سر غامض فى الكون ، وكان هذا السر دائما سرا الهيا .. وهذه الحساسية الفائقة كان يصاحبها مقدرة عظيمة او قوة خارقة فى التعبير الأدبى عن هذه الحالات المباشرة من التجارب . لقد كان لورنس ينظر الى الكون بما فيه بعينى انسان كان على وشك الموت ثم بعث من جديد واخذ ينظر الى الكون من حوله بنوع من التأمل والبهجة والسرور . وكانت الحياة كلها بالنسبة له فترة نقاهة مستمرة ، وفى كل يوم من حياته كان يشعر وكانه قد شفى من مرض عضال . وكان قلمه وحديثه يعكسان ما كان يراه بعينيه ، فقد كان مثلا يستطيع ، عن طريق التجربة الذاتية الخاصة ، أن يصف لنا احساس الانسان اذا ما أصبح شجرة أو تحول الى زنبقة أو موجة أو قمر ، كان فى استطاعته أن يدخل تحت جلد حيوان ما ويشرح لنا ما يحس به الحيوان فى تفاصيل مقنعة » . ويقول هكسلى ، وقد كان صديقا للورنس ، ان لورنس كان لا يهتم كمعظم الناس والأدباء بالشكل بل بالجوهر ، لم يكن مثلا يهتم بالفحم أو بالماس بل بالكربون ذاته الذى يدخل فى تركيب كليهما . وكان تحليله لهذه التجارب الذاتية لا يتم عن طريق العلم او العقل ، بل كان يتم عن طريق عملية حدس مباشرة ، فقد كان مثلا فى استطاعته أن « يشعر » و « يحس » بوجود الكربون فى الفحم والماس وأن « يذوق » الأيدروجين والاكسجين فى الماء الذى يشربه .

وقد استمر انتاج لورنس الأدبى الخلاب عشرين عاما بالرغم من مرضه ، وكان يجيد ، كما يقول هكسلى ، فن الاسترخاء والاستجمام ، ولكن هذه الفترات لم تكن فترات كسل أو خمول . واذا اطلقنا

على لورنس لقب « عبقرى » ، فاننا نعنى بهذا ذلك الشخص الذى يولد وله احساس فائق بالحياة ، او ادراك حسى فريد فى نوعه واستعداد فطرى لنوع معين من التفوق الانسانى . وربما نسأل الآن : لماذا تطلق على لورنس لقب « عبقرى » ؟ ونعتقد ان السبب الرئيسى الذى يستحق من أجله لورنس الدراسة والتمجيد هو انه قد نجح فى توسيع وتعميق دائرة وعينا . وفى هذه الحالة يصبح من الصعب علينا أن نتكلم عن التكنيك فى قصصه او عن طريقته فى عرض مادته ، أو عن أسلوبه أو حتى بعد نظره ، لاننا حين نقرأ قصصه نشعر أننا نتعلم شيئا عن هذه « الحالات الغامضة فى الوجود » لأول مرة ، شيئا لا مثيل له فى القصص الانجليزى من قبل . وحينئذ سنعترف بعبقريته ولكننا نستطيع أيضـــا ، كما فعل ت . س . اليوت فى عام ١٩٢٤ ، أن نتهمـــه بالالحاد وتطبق على قصصه وفلسفته قوانين خلقية معينة ، ولكننا ، كاليوت أيضا (١٩٥٠) قد نغير رأينا فيما بعد . فقصص لورنس ، كمعظم القصص الأخرى ، تعليق على تجارب انسانية معينة ، ولكنها تختلف عن القصص الأخرى فى أنها كشف جديد متعمد وبحث عن قيم جـــديدة . وربما وجدنا فى قصصه تكرارا مملا وتعقيـدا فى التفاصيل وتناقضا ونوعا من الهيستيريا وعلما زائفا ولكننا نجد فيها قوة وذكاء واخلاصا وتعمقا فى النفس البشرية قلما حققه كاتب من قبله . وقد كان لورنس يعتز دائما بمهنته كقصصى ويفخر بها :

« اننى ارفض كليـــة ان أعتبر نفسى روحا او جســدا او عقلا او ذكاء او مخا أو جهازا عصبيا او مجمـــوعة من الغـــــــدد أو جـــزء من باقى تلك الاجـــزاء التى تـكوننى . فالـــكل أعظم من الجزء . ولذلك فأنا ، الانسان الحى ، أعظم من روحى ومن نفسى ومن جسدى ومن عقلى ومن وعى ومن أى شىء آخر يكون جـــزءا منى . انى انسان وحى ، انى انســان حى ، وأنوى بقدر ما استطيع ان أظل انسانا حيا . وأنا قصصى لهذا السبب . وأعتبر نفسى ، لانى قصصى ، افضل من القديس او العالم أو الفيلسوف او الشاعر ، فهم أساتذة متخصصون فى أجزاء مختلفة من الانسان الحى ، ولكنهم لا يصلون الى الكل أبدا . »

حياته وفنه القصصى :

ولد لورنس فى ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٥ فى ايست وود على بعد ثمانية أميال من نوتنجهام وكان الطفل الرابع لأحد عمال المناجم . وكان الفحم يستخرج من باطن الارض فى هذا المكان منذ قرون ، ولكن طريقة استخراجه كانت بدائية حتى عام ١٨٤٠ أى قبل مولد لورنس بحوالى أربعين عاما وكان عمال المناجم يسكنون أكواخا من القش والغـــاب ويعملون فى جوانب التلال والجبال وكانت الحمير تجر الفحم الذى يخرج من باطن الأرض وتنقله الى المخازن . ويصف لورنس هذه الفترة فى قصته « أبناء وعشاق » . وبعد عام ١٨٥٠ بدأ المنظر يتغير وأدخلت وسائل حديثة عندما وصل أصحاب رؤوس الأموال وامتدت السكك الحديدية وأخذت مناجم الفحم تظهر وسط الحقول الخضراء والمراعى والغابات . واختفت الاكواخ المسقفة بالقش والبوص وحلت محلها صفوف من المساكن المريحة قام ببنائها أصحاب شركات استخراج الفحم . وأخـــذت الطرق وخطوط السكك الحديدية تخترق الارض الزراعية الخضراء والوديان والغـــابات . وكانت الارض ما زالت أرضا ريفية جميلة فى شرقها غابة شيروود تظللها أشجار البلوط وفى الشمال الشرقى منها جبال داربى شاير . وكانت المناجم فى بادىء الأمر شيئا جديدا وقليلة العدد وسط المنـــاظر الطبيعية الخلابة . وظلت ايست وود نفسها تحتفظ بطابعها الريفى الجميل ولم تتحول كلية الى مدينة صناعية وكانت تتمتع بموقع ممتاز فوق ربوة عالية ومعظم منازلها كانت تطل على الأرض الفسيحة المترامـيـــة الأطراف . وقد ظل أهل ايست وود بعيدين عن المجتمع الصناعى فى شفيلد أو لندن أو ليفربول ولا يشبهون سكان الأحياء الفقراء فى أنحاء انجلترا ، كانوا يسيرون وسط الحقول ليصلوا الى المناجم ، وفى أثناء ذهابهم للعمل أو عودتهم قد يتوقفون ليجمعوا شيئا من عش الغراب او يقتنصوا أرنبـــا بريا للعشاء مثلهم فى ذلك مثل الفلاحين العاديين . وبالاضافة الى ارتباطهم بالارض وعملهم فى المناجم كانوا صـــناعا مهرة يفخرون بما تصــــنعه أيديهم ، ولم تهددهم البطالة

الا فى النادر . وكان فى استطاعة جون آرثر لورنس ، والد د . هـ . لورنس ، أن يحصل على أجر أسبوعى قدره خمس جنيهات (ومن سخريات القدر أن لورنس نفسه وبعد عشرين عاما كان يحصل على أقل من جنيهين فى الاسبوع من مدرسة فى لندن بالرغم من أنه كان مدرسا مؤهلا ، وكان هذا يعتبر مرتبا كبيرا) .

ولم يكن عمال المناجم ، كما يقول لورنس ، يهتمون كثيرا بأجورهم ، فقد كانوا يعيشون عيشة غرزية فطرية تنمى فيهم روح الصداقة والأخوة والبساطة وهم يعملون نصف عراة فى باطن الأرض وفى الكهوف المظلمة . وكانوا يواصلون هذه الصداقة والأخوة عندما يخرجون من المناجم ويجتمعون فى المشارب والحانات . لقد كانوا يعيشون فى عالم مظلم أسود قاس معظم وقتهم ، فقد كانوا يتركون منازلهم فى وضح النهار ، بعيدين عن عالم الحقائق والمعاملات المالية والمسئوليات المنزلية . وما كان يهمهم هو توفير أسباب الراحة لافراد أسرهم ، ولكن هذه الحياة الغريبة دفعت الزوجات الى اعتبارهم سكان عالم آخر غريب وفى النهاية أخذن ينظرن اليهم على أنهم دخلاء .

ولم يستطع لورنس أبدا أن يتخلص من ظلام المناجم ولونها الأسود الفاحم وظلت هذه الصورة تتسلط على عقله ووجدانه . فقد كان المنجم بالنسبة اليه رمزا وسرا غامضا يوحى اليه بالغموض الكامن فى اللاشعور الذى يزخر بالرموز الداكنة . وفى قصصه يظهر الظلام والغموض بشكل واضح فى ابرازه لحاسة اللمس وفى محاولتـه لوصف التجارب الذاتية التى تطفو من « اللاشعور المظلم » ومن مستويات أخرى « مظلمة » ، تلك القوى والدوافع التى تعمل فى خفاء وفيما تحت مستوى الوعى . فقد كان لورنس يحس أن المنجم قد ابتلع والده ، وأن الوالد قد أصبح غريبا ، مخلوقا شاذا يعيش على وجه الأرض لفترات قصيرة ثم يعود فيغوص فى باطنها .

وكان لهذا الصراع بين والد لورنس ووالدته أثره الكبير فى حياته العادية وحياته كفنان . فقد كان والده رجلا أميا بدأ عمله فى المناجم وهو فى سن العاشرة ، وكان يجد صعوبة فى كتابة اسمه أو قراءة بضع كلمات فى جريدة يومية . وكان نشاطه جديا ـ عمله فى المنجم واصلاحه لبعض أدوات منزله والسير لمسافات طويلة على الأقدام مع أصدقائه والتسامر فى المشارب . أما الوالدة فقد كانت تتمتع بقسط أكبر من التعليم ، فقد تعلمت فى مدرسة خاصة ثم أصبحت فيما بعد مدرسة بهذه المدرسة وكانت تقرأ كثيرا وتكتب الشعر وتحب الأفكار والمناقشات الفلسفية والدينية وتفوق زوجها فى الاحساس المرهف والتهذيب الخلقى . وقد أصرت الوالدة منذ البداية على أن يحصل أولادها على قسط أكبر من التعليم ، ولولا طموحها لما قدر للورنس أن يحصل على هذا القسط من التعليم الذى مهد له السبيل لأن يكون كاتبا . ومهما كانت ثورة لورنس فيما بعد على التعليم وحياة الذهن والأفكار المجردة ، فلا أحد يستطيع أن ينكر فائدة التعليم ، ولا أحد يستطيع أن يكون أديبا قصصيا مثل لورنس دون ثقافة ، فلا تستطيع الغريزة وحدها ولا الحياة وحدها أن تنتج أدبا رائعا . ومن ناحية أخرى كان لوالده أثره أيضا ، فلولا حبه للحياة ذاتها بمعطياتها الحسية ودفئها لما قدر للورنس أن يكون لورنس الذى نعرفه ، ولربما كان أثر طموح والدته أن أصبح لورنس رجلا مثقفا ماديا . وكان لورنس يرى الأشياء وهو شاب بعينى والدته ولكنه فى المدى الطويل أخذ يعجب بوالده وبحياته الغرزية الجسدية . وفى قصته الاولى « الطاووس الأبيض » يظهر تعلقه واعجابه بعالم أمه ، وفى قصته الأخيرة « عشيق الليدى تشاترلى » نراه أبعد ما يكون عن هذا العالم .

وبعد أن عمل لورنس فى شركة لانتساج المعدات الجراحية فى نوتنجهام دخل مدرسة ايست وود ثم التحق بجامعة نوتنجهام وتخرج كمدرس فى عام ١٩٠٨ ، وبعد أربع سنوات قضاها فى التدريس ونشر فيها قصصا قصيرة عديدة وعددا من القصائد وقصتى « الطاووس الأبيض » ١٩١١ و « المذنبون » ١٩١٢ ، فر الى ألمانيا ومعه « فريدا » زوجة مدرسه الفرنسى وكانت سيدة المانية واما لثلاث أطفال . وكان لوفاة والدته أثره فى تحرر لورنس من كل الصلات التى تربطه بانجلترا التى تركها ليبدأ رحلاته الطويلة مع « فريدا » ، تلك الرحلات التى استمرت حتى وفاته فى عام ١٩٣٠ . وكان لورنس يعود

الى انجلترا لفترات قصيرة كلما عاوده الحنين الى وطنه اذ كانت رحلاته الى ايطاليا وألمانيا واستراليا تستغرق كل وقته . وفى المكسيك الجديدة استقر لفترة والزوج « فريدا » .

واثناء الحرب العالمية الأولى لم يتطوع لورنس فى الجيش لأن صحته كانت معتلة بسبب مرض السل الذى بدأ يداهمه . وفى عام ١٩١٥ حاول أن يقنع فريقا من الكتاب والمفكرين من بينهم الدوس هكسلى وبرتراند رسل ومارك جيرتلر ومايكل آرلين ودوروثى بريت ليقيموا فردوسا أرضيا فى فلوريدا ويكون شعار هـذه الجماعة « العنقاء » وتكون مهمتها تجديد العالم كله وبعثه من جديد فى صورة أحسن مما كان عليه . وفشلت الفكرة ولم يتحقق حلم لورنس لأن برتراند رسل ضاق بلورنس وأفكاره ، فقد أطلق لورنس لحيته وبدا فى صورة « مسيح جديد » تملأ عقله أفكار بعيدة الاحتمال عن ولادة الانسان مرة ثانية عن طريق ما كان يطلق عليه « وعى الدم » أو « فلسفة الدم الغرزية » . أما الدوس هكسلى فلم يتأثر كثيرا بأفكار لورنس لأن هكسلى فى ذلك الوقت ، كما يقول ، كان « رجلا حريصا » وكان حديث لورنس دائما يدور حول الاشياء البعيدة والذاتية البحتة . وهذه الفلسفة الطبيعية الغرزية تتبلور فيما يقوله لورنس فى كل من « قوس قزح » ١٩١٥ و « نساء عاشقات » ١٩٢٠ . ففى قصته « نساء عاشقات » يتحدث « بيركين » بلسان د . هـ . لورنس ويحلل لنا فلسفة لورنس فى الاستقطاب والتكامل كما تزخر القصة بمواقف درامية وبرموز لها مغزاها .

وقضى لورنس سنوات الحرب العالمية الاولى فى انجلترا شبه سجين فيها فقد كانت السلطات تراقبه وتشك فى نشاطه وكانت الحكومة تعتبره محركا للاضطرابات وجاسوسا ألمانيا . وبعد انتهاء الحرب بدأ لورنس وفريدا سلسلة من الرحلات بنوع من الجنون ــ من ايطاليا الى صقلية ، ثم الى ألمانيا وبعدها الى ايطاليا ثم الى سيلان ومنها الى استراليا والمكسيك ولوس أنجيليس ونيو أورليانز وكان يرغب فى زيارة روسيا ولكن حالت الظروف دون ذلك . وفى عام ١٩٢٢ عاد لورنس الى انجلترا مرة ثانية ولا زالت فكرة فردوسه الأرضى « رانانيم » تراوده ، ثم بدأ سلسلة رحلاته مرة ثانية فسافر الى الولايات المتحدة والمكسيك ثم انجلترا ، وبعد ذلك الى ايطاليا وكابرى وفلورنس وبادن ولندن وايطاليا واستراليا ونيو زيلند وسويسرا وفرنسا وبفاريا واخيرا فى مصحة فى « فنس » فى جنوب فرنسا حيث توفى بمرض السل . وكما يقول هكسلى فى مقدمته لرسائل لورنس :

« لقد كان احساس لورنس بالعزلة هو الذى دفعه للتجول حول الأرض ، وكانت رحلاته هروبا وتنقيبا فى آن واحد : كان يبحث عن مجتمع يستطيع أن ينتمى اليه ، عن عالم لا يكون الزمان فيه ذاتيا ولا تكون المعرفة الواعية فيه قد أفسدت الحياة ، تنقيبا وفى الوقت ذاته هروبا من الشقاء والشرور فى المجتمع الذى ولد فيـه ، ذلك المجتمع الذى كان يشعر تجاهه بالمسئولية رغم احساسه العميق بضرورة انفصال الفنان عنه . ولكن بحثـه كان غير مثمر كما كان هروبه لا طائل تحته . وفى حالة من اليأس ألقى بنفسه فى أعماق اللغز المحيط به ، فى الليل الأسود لتلك « الغيرية » التى تعتبر التجربة الجنسية جوهرها ورمزها . ولقد أدى انعزال لورنس النفسى واغترابه الى طلبة العزلة جسديا عن البشرية ، ولقد كان لهذه العزلة الجسدية رد فعل فى أفكاره . »

ولم يستقر لورنس على حال خلال هذه السنوات وكان لتجاربه العديدة خلال رحلاته أثرها فى تعميق نظرته للحياة وتطور طريقته فى الاقناع والعرض فى قصصه . وقد كان كل شىء يراه لورنس أو يسمعه أو يحس به مادة تغذى كتبه محاولا اقناع الانسانية بضرورة المولد الجديد عن طريق احساسها بما كان يطلق عليه « النصف الادنى من الوعى » ، هذا الجزء الذى لا يستطيع العقل أن يصل اليه . فقد كان لورنس يؤمن بأن مصايب الانسان فى العصر الحديث ترجع الى أنه ينمو ويتطور من خصره الى أعلى بينما يترك ما دون الحزام كما هو أى يعنى بالعقل على حساب الجسد . وكان لورنس يؤمن بأن الانسان

بحالته الراهنة لا يتمتع بكل طاقاته ولا ينمى كل امكانيـاته ، وانه من الضرورى للانسان لكى يحظى بهذا الميلاد الجديد من أن يموت كالعنقاء ليولد ويبعث من جديد من رماده بعد هذا التطهر . وفى هذا النوع الجديد من الحياة وجد لورنس صورة للرسالة التى شكلت ولونت كل ما كتب تقريبا ، حتى كتبه فى النقد والرحلات متقلة بهذه الرسالة التى سيطرت عليه حتى وفاته .

ان رحلات لورنس المتواصلة ومحاولاته للاحتكاك بحضارات مختلفة وممارسة الحياة على مستويات عديدة تشير الى بحثـه الدائب عن شىء كان يراوغه . فلقـد كان لورنس مثاليا مغرقا فى مثاليته لذلك لم يرض بما تقدمه له الحياة العـادية وكان دائما يطلب الكمال فى كل شىء حتى أنه لم يقبل أنصاف الحلول التى قد تؤدى فى المدى الطويل الى مثله العليـا . ولهـذا ظل يغوص فى العالم الميكروكوزمى الغرزى الى ما دون المستوى الانسـانى ، عالم الذرة والالكترون ، عالم الغرائز والالغاز والدوافع الجنسية الخفيـة . ومضى فى طريق الجسد يحلل بدقة جذور الرغبة الجنسية حتى كاد أن يصل الى نسيج الوجود والحياة . وظل شيطانه يطارده حتى آخر أيام حياته ، وظلت حيويته تتدفق منه بغزارة حتى عندما فقد الأطباء الأمل فى انقاذه .

ان قصص لورنس لا تعتبر ترجمة ذاتية فحسب بل هى وثائق تسجل التفاصيل الطبيعية والبيئية حوله ، ويظهر معظم أصـدقائه فى قصصه بشـكل أو آخر وأهم ما تتميز به قصصه هو قوة أسلوبه فى الوصف ودقة احساسه . ويجب علينـا منذ البداية وقبل أن نستعرض بعض قصصه أن نقول أن لورنس لم يكن رجلا عبقريا ، أو رجلا رائعا ، أو أحيانا رجلا مجنونا ، أو واعظا ، أو مصلحا اجتماعيا فحسب ، بل كان كاتبا عظيما .

أعمالـه :

كثيرا ما كان للورنس مع السلطات البريطانية مشاكل لا تنحصر حول الرقابة على كتبه ولوحاته . فقد منعت الرقابة « قوس قزح » و « عشيق الليدى تشاترلى » من النشر ، وهاجم رجال اسكتلنديارد معرضا للوحاته فى مدينة لندن وصادروا اللوحات . ولم تثن هذه المشاكل والصعاب لورنس عن عزمه وظل يكتب بعنف واصرار . وبالاضافة الى عدد كبير من القصص القصيرة أهمها « الرجل الذى مات » والقصائد والرسائل والمقالات النقدية فله عدد آخر كبير من القصص : الطاووس الأبيض ١٩١١ ــ أبناء وعشاق ١٩١٣ ــ قوس قزح ١٩١٥ . نساء عاشقات ١٩٢٠ ــ الفتاة المفقودة ١٩٢٠ ــ الكنغر ١٩٢٣ عشيق الليدى تشـاترلى ١٩٢٨ ــ الديك الهـارب ١٩٢٩ وقد نشرت بعـد ذلك بعنوان « الرجل الذى مات » . والقارىء الذى يهتم بقصص لورنس لابد أن يقرأ له « التحليل النفسى واللاشعور ١٩٢١ و « فانتازيا اللاشعور » ١٩٢٢ .



الطاووس الأبيض : The White Peacock

تنتمى هذه القصة البسيطة الى قصص توماس هاردى لجوها الهادىء الرعوى الريفى الجميل وترسم لنا معالم القصة اللورنسية من حيث ابرازها لشخوص لورنس المميزة ، ومواقفه النموذجية فنجد فيها الشخصيات التى تسير وراء العقل ، والارستقراطى العاجز ، وحارس غابة الصـيد .



وفى القصة يحاول لورنس أن يشكك فى القيم الاخلاقية الفكتورية ويصور لنا جو العصر الكئيب ويفضحه . وعندما انتهى لورنس من كتابة قصته عرض مخطوطها على « هوفر » وكان قد استغرق فى كتابتها أربع سنوات . وقرأ هوفر القصة وقال للورنس : « أن فى هذه القصة كل العيوب التى فى القصة الانجليزية ، ولكنك عبقرى . » ونشرت القصة فى أمريكا وانجلترا وكان سن لورنس ٢٥ عاما .

وتصور القصة الريف الذى نشأ فيه لورنس ـ الوديان والجبال والغابات والحقول حول ايستوود قبل أن تشوه المناجم وما حولها من قذارة الجو الريفى الجميل . ويصف لورنس الريف كرجل ريفى يحبه ويحس نحوه باحساس عميق ولا يحاول أن يتغاضى عن مواطن القبح فيه ـ الأراضى البور والارانب الجبلية التى تلتهم المحاصيل ، والفئران التى تتوالد فى الشون والمخازن والأكواخ المهجورة المتهدمة والحيوانات والطيور التى تقع فى المصائد والفخاخ أو التى تقتل أو تفترس .

ويسرد لورنس قصته سردا ذاتيا عن طريق ضمير المفرد المتكلم ويمكننا ان نصف القصة على أنها محاولة من جانب الراوى لتصوير حياة لورنس على أنها تحقيق للحلم الذى كان يراود والدته بشأن مستقبله . فيعيش البطل مع والدته وأخته ويقوم برسم لوحات بألوان مائية ويعيش عيشة مثالية ، فالعالم الذى يعيش فيه عالم نظيف مريح يستلقى أفراده فيه على كراسى مريحة ويقرعون الأجراس للخدم ويرتدون ملابسهم الرسمية للعشاء . وبالرغم من أن لورنس يتحدث بضمير المتكلم المفرد فيها الا أننا لا نحس بوجوده الا قليلا . ويمثل « سيريل » د . هـ . لورنس فى القصة وتنشأ بينه وبين جورج ساكستون صداقة متينة تصل الى ذروتها فى المنظر الذى يستحم فيه الاثنان ؛ ويتكرر هذا المنظر فى قصص لورنس الأخرى مثل « قوس قزح » و « نساء عاشقات » ومن طريقه يحاول لورنس أن يصور لنا التوافق والانسجام الروحيين عن طريق اللمس والاحتكاك الجسدى كما فى الفصل الذى أطلق عليه « المصارعون » فى « نساء عاشقات » . ويتزوج جورج من امراة غير متعلمة بعد أن فشل فى الزواج

من « ليتى » شقيقة « سيريل » . وتنجب « ميج » زوجة جورج له توامين وتبدأ عملية المد والجذر التى سيبلورها لورنس فيما بعــد فى الظهور . فتهمل « ميج » زوجها وتولى أولادها عنايتها ويقول زوجها : « ان « ميج » لم تعــد تجد فى المتعــة التى تجدها فى الأطفال . » وهــذه الفكرة بدورها سيكون لها صدى فى قصصه الأخرى . وعندما نبدأ فى الاهتمام به لصراحته وقوة بدنه نجد أنه قد تحول الى سكير يحطم نفسه وزوجته وأولاده . والفصل الأخير فى القصة يشبه موعظة طويلة فى منع المسكرات ويبدو أن لوالدة لورنس أثرها فقد كانت تعتبر الخمر من الرذائل الكبرى وكان الزوج أحد ضحاياها ولا سيما وأن الوالد فى هذه القصة يموت من جراء الاسراف فى تعاطى المسكرات .

والقصة قصة لفنان شــاب والكتاب كتاب عذرى صور فيه لورنس الحياة من حوله تصويرا حيا ولكنه لم يمارس تجاربها ممارسة فعالة ولهذا فالقصة تتكون من سلسلة من المناظر لا تربطها فكرة محورية واحدة . ومن الغريب أن الفصل الذى يعالج « الطاووس الأبيض » لا يمت الى بقية القصة بصلة . وهــذا الفصل يذكرنا بالقصص القصيرة التى نجدها فى القصص الطويلة التى خلفها لنا فيلدنج وديكنز وسير والتر سكوت . وتدور هذه القصة حول القسيس « أنابيل » الذى تخرج فى كمبردج وتسلم عمله فى أبراشيه ولاحقته ابنة عم مدير الابراشيه ، الليدى « كرستيابل » فتزوجها ليكتشف فيما بعد أنها سيدة روحية لا تريد أن تنجب أطفالا . ويتركها هى والكنيسة فى النهاية ويعيش فى كوخ حقير مع امرأة قذرة أنجبت له قطيعا من الأطفال ويعمل كحارس لغابة صيد وأصبحت « تتسلط عليه فكرة واحدة : ان الحضارة شىء عفن مزوق ، وكان يكره أى اشارة الى الثقافة . » ويظهر الطاووس الأبيض فى فناء الكنيسة الملحقــة بالنزل الكبير الذى يعمل فيه « انابيل » ويحط على تمثال حجرى الملاك فوق رأس ضريح ويتبرز فوقه ثم يرفع رأســه ويصرخ بصوت عال . وهــذه القصة القصيرة لها أهميتها لأن فيها جذور قصة « جيلوز » فى « عشيق الليدى تشاترلى » .

أبناء وعشاق : Sons and Lovers

لقد نشأ لورنس يهتم بالعلاقة بين الرجل والمرأة بسبب الفرق الكبير بين ثقافة والده ووالدته . واذا كان لنا أن نصدق لورنس ، فقد اتجهت الأم نحو أولادها لتجد كفايتها من العطف والحب والحنان والفهم ، تلك العواطف التى لم تحصل عليها من زوجها . وهذا الرأى يعضده وجود التيارات الخفية التى يصورها لنــا لورنس فى قصصه كلما ظهرت سلطة المرأة على الرجل . فلورنس حساس جــدا وبطريقة فائقة لأى تسلط من جانب المرأة على الرجل وكثيرا ما تدفعه هذه الحساسية الفائقة الى الدفاع عن نفسه بطريقة هيستيرية ويتخذ الجنس لهذا شكلا رهيبا . وكان لورنس ينظر الى تسلط المرأة على الرجل ، ســواء ذلك عن طريق الحب أو الحنــان ، على أنه الخطيئــة الأولى ضد القانون الطبيعى ، وجعله هذا الاعتقاد ينظر الى جهود المرأة فى الحصول على المساواة بالرجل وكأنها مسئولة عن كل شقاء وتعاسة نجدها فى هــذا العالم . وقد كانت الحركة النسائية لتحرير المرأة على أشدها فى أيام شبابه ، وفيما بعــد أخذ يرى نفسه فى صورة والده فى صراعه مع أمه . وحتى بعد زواجه من « فريدا » ، وكانت امرأة قوية حادة الطبع ، استمر لورنس يعانى من هذه الأزمة . فقد كان لحيويتها الجسدية الفائقة أثرها فى اجتذاب لورنس نحوها ، وفى الوقت ذاته أصيب جسده الهزيل المسلول بهزة عنيفــة ، واضطرب العبقرى المريض ودفعه مزاجه العصابى الى أن يجد فيها بديلا لأمه وامرأة يستطيع السيطرة عليها . ولم تكن « فريدا » « أما » أو امرأة يمكن السيطرة عليها ، ولم يحصل

لورنس من هذا الزواج على راحة البال التى كان ينشدها ولو أن زواجه ، دون شك ، كان له اثره فى حثه على المضى فى عمله بطريقة مبتكرة .

ونجد فى هذه القصة تصويرا دقيقا لموقف لورنس من المرأة كأم وكعاشقة ، والقصة من النوع الذى يعالج حياة البطل منذ طفولته وتنتمى كذلك الى ذلك النوع من القصص الذى يعطى صورة للفنان فى شبابه وفى صراعه مع العالم ، وتشبه الى حد ما قصة جيمس جويس « صورة للفنان فى شبابه » . وهذان النوعان يتميزان بالتركيب الاستطرادى الذى تصبح فيه حياة البطل الرابطة الوحيدة بين أجزاء القصة المختلفة وحلقاتها . ويظهر التفكك فى قصة لورنس ولا يظهر فى قصة جويس . وفى « أبناء وعشاق » يبسط لنا لورنس حياة بطله منذ ولادته ثم نراه يمر خلال سنوات شبابه بأزمات متعددة حتى بلغ مرحلة الرجولة . ويعتبر لورنس كاتبا تقليديا حيث أنه يعتمد على التسلسل الزمنى فى سرد قصته التى تتكون من ثلاث فصول فى الغالب ، وقد حاول أن يتجنب ذلك كما كتب فى خطاب له لادوارد جارنيت :

« ولقد أعدت كتابته مرة ثانية ، وقمت بتقليمه وتشكيله ، وملأت الثغرات التى كانت فيه — وأقول لك ان القصة شكلا — شكلا : الم اكتبها بصبر ، من عرقى ومن دمى . والقصة تتبع هذه الفكرة : امرأة لها شخصية ومهذبة تضطر الى النزول الى درجة أقل فى المجتمع ، وهى ليست راضية عن حياتها . لها عاطفة نحو زوجها ، وتنجب أطفالها عن طريق العاطفة ، ولها قدر هائل من الحيوية . وعندما يشب الأطفال فهى تختارهم كعشاق — أكبرهم أولا ، ثم الثانى . ويضطر الأبناء الى التجاوب مع الحياة وبادلوا أمهم حبا بحب — ويندفعون قدما فى هذا الطريق . وعندما يبلغون سن الرجولة يجدون أنهم لا يستطيعون أن يحبوا ، لأن الأم كانت قد أصبحت أقوى قوة فى حياتهم ، وتسيطر الأم عليهم .. واذا حدث ثمة تلاق بين هؤلاء الشبان ونساء أخريات ، عانوا انقساما . ويصبح ويليام مستهترا ، وتسيطر أمه على روحه . ولكن هذا الصراع يقتله ، لأنه لا يدرى أين تكون حياته . ويكون من نصيب الابن الثانى امرأة تناضل فى سبيل روحه — تناضل أمه . ويحب الابن أمه — كل الأبناء يكرهون الأب ويغارون منه . وتستمر المعركة بين الأم والفتاة ، ويصبح الابن هو الهدف . وبالتدريج تثبت الأم قوتها ، نظرا لرابطة الدم . ويصمم الابن على ترك روحه بين يدى أمه ، ومثل أخيه الأكبر ، يسلم نفسه للعاطفة ، ويحصل على العاطفة . ويبدأ الانقسام من جديد . ولكن ، دون وعى منها ، تدرك الأم ما فى الأمر ، وتبدأ فى الاحتضار . ويترك الابن عشيقته ويسهر على أمه المحتضرة . وفى النهاية نراه عاريا من كل شىء ، يجرفه تيار الموت » .

وقد حاول لورنس أن يكتمل شكل قصته عن طريق تقسيمها الى أطوار مختلفة فى تسلسل زمنى مطول . وقد عالج لورنس سنوات عديدة من حياة « موريل » وسلط أنواره على علاقات معينة طابعها التجاذب والتنافر والمد والجذر لا التغير الطبيعى والتطور بمرور السنين ويظهر هذا التكنيك فى قصته « قوس قزح » أيضا . ففى بعض حلقات القصة نرى فى مسز موريل الشخصية الرئيسية المحورية التى تنتظم حولها باقى الشخوص — والتر موريل فى شبابه ثم كزوج محطم ، ثم ابنها الأكبر « ويليام » ومن بعده « بول » وأحيانا أولادها آنى وآرثر . وفى دورة أخرى يحتل « بول » أمامية الصورة ونراه فى علاقاته بأمه وبميريام وبكلارا . وتظل الشخصيتان الرئيسيتان فى صراع حتى موت الأم بينما تحدث توافيق وتباديل بين الشخصيات الأخرى فتتقابل وتتلاقى خلال القصة كلها : مسز

موريل وميريام ، مسز موريل وكلارا ، ميريام وكلارا . وقد تعدى لورنس حدود الاتصال أو التلاق بين شخصية وأخرى وجعل لكل شخصية فكرة تسلط عليها .

والصراع بين الأم والأب فى القصة صراع بين الثقافة والجهل ، بين الوعى العقلى والحيوية الحيوانية الغرزية ، بين الروح (العقل) وبين النفس (الجسد) . أما العلاقة بين بول ومسز بول وبين بول وميريام فتتميز بردود افعال أخرى معينة ويضمن لورنس هذه الأنواع من الصراع أبعادا واسعة ، فكل فرد يحاول أن يمتع بتمام ذاتيته ويحقق امكانياته بقدر ما يستطيع ويعمل على توسيع آفاق تجربته . ولا تظهر هذه التضمينات فى القصة بوضوح لأن القصة كانت محاولة أولى ، ولم يستطع لورنس أن يتخلص من الاهتمام بتجارب معينة والاشارة الى أشياء محددة فى قصة تعتبر فى مجموعها ترجمة ذاتية . وعندما نصل الى « قوس قزح » أو « نساء عاشقات » يكون عنصر الترجمة الذاتية قد اختفى الى حد ما ونتنقل من جو واقعى الى تصوير مواقف عالمية ، وتصبح شخوصه تجسيدا لأفكار معينة .

وتتلون القصة كلها برأى لورنس فى الحياة ويتحول لورنس فى بعض مواقفها من قصصى الى شاعر . ورسالته فيها تتمركز حول الفكرة القديمة فى الصراع بين الأم والابن وزوجة الابن وقد أعطى لورنس اهتماما خاصا لهذه الفكرة الفرودية لعقدة أوديب ويقول لورنس :

((ولكن الرجل الذى يعتبر الوسيط بين المرأة والانجاب هو عشيق تلك المرأة . واذا كانت تلك المرأة أمه ، فهو حينئذ لا يكون عشيقا لها كلية ، فهو يحقق لها هدفها، ولكنها لا تتقبله أبدا ، ولا تساعده على توكيد نفسه أو تجديدها ، وهكذا يفنى جسده . والابن العاشق القديم كان أوديب ، ومن أوديب الجديد لدينا الملايين . واذا تزوج الابن العاشق ، فهى ليست زوجته ولكنها فراشة . وستتمزق حياته الى شطرين ، وستأمل زوجته فى يأسها فى أن يكون لها أولاد حتى يصبح لها منهم عشيق هى الأخرى فى زمانها)) .

ويلخص لنا لورنس فى هذه العبارة فكرة الصراع الرئيسية فى القصة . والابن العاشق لا يستطيع أن يساعد زوجته على الاكتمال لأنه متعلق بوالدته وتظل الزوجة دون اكتمال حتى تنجب أطفالا فيتحقق لها ما تريد وهكذا الى مالا نهاية . ومن التناقض الغريب أن اندماج « بول » مع أمه فيه اكتمال لشخصيته وفى الوقت ذاته فيه تخنيث له ، فيه اتمام لنضوجه وفيه احباط له .

وعن طريق عقدة أوديب تمكن لورنس من مناقشة عديد من الأفكار ، ففى مسز موريل نرى مثالا للفردية التى تعتد بنفسها وبذكائها ، نرى امرأة بلا وجدان تجمدت عواطفها وبردت ، ويقابلها الزوج عامل المنجم ، رجل حيوى فطرى يرتبط بالأرض التى يعمل فى جوفها روحا وجسدا ، رجل مغرم بالغناء انبساطى النزعة يفتح نفسه للحيوية فى الحياة ويرقص ويشرب . ثم نراه بعد ذلك رجلا محطما معذبا يذوى من جراء روحية زوجته وبعدها عنه نفسيا وعقليا وجسديا ويؤدى دوره فى القصة لم يختفى منها عندما تسيطر الزوجة على أبنائها . ويصف لورنس مستر موريل فى أول القصة على أنه رجل ضعيف الارادة دافىء العواطف ، وبعد ذلك يصفه عندما بدأ ينكمش تدريجيا لما فقد ثقته بنفسه وبدأ جسمه يتغضن وأخذ احساسه بوجوده يضعف . ولم يزد وزنه وبدأ يفقد قامته المستقيمة ومشيته المتدة وأخذ جسده يتأثر بضعف كبريائه . ولا تتركه الزوجة لحاله بل حاولت أن ترفع من روحه المعنوية عن طريق التهكم والسخرية وكلما تذكرت أنها فى الماضى كانت تحب هذا الرجل يزداد حزنها ، وأخيرا تدفعه الى السكر والكذب والجبن وبعد كل هذا تؤنبه لخطئه . ويصبح الزوج

غريبا ، ويتحول الى ظل رجل يظهر من باطن الارض ليختفى فى المشارب . ويقاوم الزوج ولكن رجولته تنهار فى النهاية وعندما يصبح وحيـــدا ، لا يجد من يواسيه وتخلو ذاته من القيم ولا يجد جسده الاشباع الكافى .

ويمر الابن « بول » بمرحلة مماثلة بعد وفاة والدته ويصبح مهملا منبوذا (« المنبوذ » هو عنوان آخر فصل فى القصة) ويصف لورنس الوالد المحطم بقولة : « وأعد موريل وجبته وحده ، بوحشية . واخذ يأكل ويشرب فى جلبة لا داعى لها . ولم يتكلم معه أحد . واختفت الحياة العائلية ، وانكمشت ، واطبق عليها السكون كلما دخل المنزل . ولكنه لم يعر اغترابه أية أهمية » وكان رده على هذه العزلة المفروضة عليه هو مواجهة تلطف زوجته بسوقية مبالغ فيها وخشونة فظة . ويصف لورنس الزوج احيانا بلغة قاسية ويصوره على انه قد أصبح اقرب الى الحيوان المفترس منه الى الانسان .

وهكذا تطمس هذه الشخصية ويتحقق الفصل الاول من الموقف الأوديبى ويفقد الزوج سيطرته على عائلته . وتتجه الزوجة الى أولادها بعد هذا الاحباط ، وتجد فيهم ما يعوضها عن زوجها ، الواحد تلو الاخر . وعندما تمسك بابنها الاكبر ويليام يصبح الصراع فى الاسرة على اشــده ، وعندما تميل الى بول تزداد حدة الصراع ويتأزم الموقف ويتعقد .

ويجد الابن الاكبر ويليام نفسه مشدودا الى « ليلى » ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من سيطرة والدته ، ودون وعى منه يجد نفسه يحقر من شأن « ليلى » ولا يحترمها ويتعمد الاساءة اليهــا امام والدته لكى يعطى الأم الاحســـاس بأن حبه للفتـاة مجرد نزوة سرعان ما تزول . وتحذره الام من الزواج منها ، ويبدأ فى معاناة أزمة نفسية حادة ، فهو لا يستطيع أن يتخلى عن فتاته لأنه يجد فيها متعـــة جسمانية وفى الوقت ذاته لا يستطيع أن يغضب أمه لأنه كان قد تعود ، كما يقول لورنس ، « أن تفرز أفكاره كلهـا عن طريق عقل أمه . » ويتحطم ويليام ولا يستطيع الوصول الى الاكتمال ويموت وهو فى شبابه . وبعد موت ويليام ، يصاب « بول » بالتهاب رئوى وتمرضه الأم وعندما يشفى من مرضه تتخذه بديلا لأخيه . ويتزوج « بول » وينتهى الجزء الاول من القصة .

ويبدأ الجزء الثانى « بميريام » التى تظهر غريزة الأم فى حبها للتملك . والحب فى رأى لورنس عاطفة أساسية فى الحياة ولا غنى للانسان عنــــه ، ولكن الحب يعنى الترابط والتلاق بينما الحياة الحقيقة فى نظره لاتحقق نفسـها الا فى الفرد وحده وهكذا ينشأ الصراع بين الحياة والحب ، وعبر عن هذه الفكرة بقوله : « ان القانون الأساسى للحياة العضوية كلها هو أن كل كائن حى يعتبر فريدا وفى عزلة تامة » وقد عبر الدوس هكسلى فى « ضرير فى غزة » عن حيرته بقوله : « لماذا يستمر شر هذا الانفصال ؟ انفصال القديس عن القديس ، وانفصال الاشكال الطبيعية بعضها عن بعض ؟ » ويجيب : « لا يستطيع انسان أن يأكل من أجل انسان آخر ، ولابد لاتفاهم من أن يفكر ويتمتع ويقاسى ويلمس ويشم ويسمع ويذوق فى عزلة عن الآخرين . والرجل الطيب يعيش فى عالم أقل انعزالا عن عالم الرجل الشرير ، ولكنه عالم مقفل ، تماما كالذرة المقفلة . وبالطبع اذا كان لابد من أن يكون هناك وجود ـ وجود كما نعرفه ـ فلابد للكائنات من أن تنتظم فى عوالم مقفلة وعقول كعقولنا لابد لها أن تدرك ان الوحدة دون فوارق تصبح وكأنهـا لا شىء . تناقض لا مفر منه لأننا نريد أن تكون س = ١ ولكننا نجد ، فى الحقيقة ، أن ١ = صفر . » ومنطقة الصفر هذه يطلق عليها لورنس كلمة « الموت » ، ومن الصعب على شخوصه ادراكها . فالفرد لا يمكنه الوصول الى الاكتمال الا عن طريق الاحتكاك بآخرين ، وعلى وجه الخصوص ذلك الاحتــكاك بين الرجل والمرأة ، ومـع كل فيجب على كل فرد الاحتفاظ بجوهره . والحب عند مسز موريل أو عند « ميريام » لا يعترف بجوهر الفرد الآخر ولهذا

يأتى هذا الحب بعكس ما يتوقعان ولا يساعد على الاكتمال بل يدمر ويحطم الطرف الآخر . فالحب سلاح ذو حدين اذا زاد عن الحد المعقول يسبب الموت ولهذا فلا بد من التوازن أو من عملية المد والجذر كى يتحقق جوهر الفرد .

وعندما يلتقى « بول » بميريام فهو يلقاها وهو رجل محطم فقد اتزانه وطالما هو واقع تحت تأثير امه وسيطرتها فهو لا يستطيع ان يحقق الاكتمال معها أو مع اى امرأة اخرى الا عن طريق الجسد فقط . ويحاول لورنس ان يقنعنا أن الجسد لا يعتبر طاهرا الا اذا كانت الروح طاهرة أيضا . فالجسد وحده لا يكفى لتحقيق الذات ـ ونرى ذلك فى العلاقة بين « بول » « وكلارا دوس » ـ وكذلك الالتقاء الروحى وحده لا يكفى ، اما الاثنان معا فسيجلبان للانسان السعادة ويساعدانه على النمو والازدهار .

وتعجب ميريام باحدى لوحات بول فيقول لها : « ان السبب يرجع الى انه لا يوجد فيها ظلال بارزة ، فهى تظهر التألق والوميض ، وكأننى قد رسمت البروتوبلازم الذى يتألق فى أوراق الاشجار وكل شىء ، ولم أرسم الشكل الجامد الذى يبدو لى بلا حياة . ان هذا الوميض هو الشىء الحقيقى الذى . والشكل ما هو الا قشرة ميتة . ان التألق حقيقة فى داخل الاشياء . » ويحاول « بول » أن يصل الى هذا الوميض ، الى هذا البروتوبلازم أو الجوهر الحى المتألق فيما يرسمه وفى الحياة ذاتها ، فينجح فى الوصول اليه فى لوحاته ويفشل فى تحقيقه فى حياته . فهو كالزهرة التى لا تجد تربة خصبة تساعدها على النمو فقد اقتلعتها الأم لتحتفظ بها لنفسها ولهذا يثور « بول » على « ميريام » من أجل موقفها حيال الأزهار وتحب الأم وميريام الأزهار لا لأنها اشياء جميلة بل على أنها ممتلكات . ويقول لورنس فى مقال له عن « نوتنجهام » :

« ان حب الأزهار شىء محير ، فمعظم النساء تحب الأزهار كممتلكات وأشياء للزينة . فهن لا يستطعن أن ينظرن الى زهرة ويتملكهن العجب للحظة ، ثم يذهبن لحالهن . فاذا وجدن أن زهرة قد استحوذت على اهتمامهن ، فلابد لهن فى الحال من التقاطها ، من اقتطافها . الاقتناء ! التملك ! هذا شىء جديد أضيفه الى نفسى . ان ما يطلق عليه اليوم حب الأزهار ما هو الا مجرد الوصول الى الامتلاك والى الأنانية : شىء عندى « أنا » ، شىء يزيننى « أنا » . » ولهذا يثور بول على ميريام ويسألها فى غضب عندما يرى زهرة فى يدها : « لماذا تقبضين على الأشياء دائما وتنتزعى قلوبها منها ؟ » ويترك بول ميريام لفترة بعد أن ضاق بها واتجه الى « كلارا » فى محاولة للوصول الى الاكتمال عن طريق الجسد . وتمثل كلارا « المرأة الجديدة » فى ذلك الوقت فهى متزوجة ولكنها منفصلة عن زوجها ويجد فيها بول الأنوثة الناضجة والدفء الذى لم يجده فى « ميريام » ويقع فى غرامها لفترة ولكنه لم يستطع أن يحقق معها الاكتمال وتعود لزوجها الضعيف فى النهاية . ويجد بول نفسه « كالمنبوذ » بدون امه وبدون ميريام كلارا ولكنه يرفض الاستسلام لليأس ونتركه فى آخر القصة وهو يواجه مستقبله الغامض .

قوس قزح : The Rainbow

يتغير أسلوب لورنس فى الكتابة بعد « ابناء وعشاق » ويظهر انسانه المثالى الذى يحقق المولد الثانى أو البعث ويخرج لنا « بيركين » فى « نساء عاشقات » وميلورز فى « عشيق الليدى تشاترلى » والمسيح فى « الرجل الذى مات » . وقد اتخذ لورنس العنقاء رمزا لهذا التحول الجديد كما اتخذ هكسلى الفراشة من بعده رمزا للروح التى تخرج متطهرة من رماد جسدها . ويتمكن بيركين من الانسلاخ

من احباطه ويصبح شخصا جديدا مكتملا يواجه الحياة بحيوية ويسير ناحية الخلق والحياة لا ناحيـة الموت .

وفى أواخر عام ١٩١٢ كتب لورنس لادوارد جارينت يقول أنه سوف يرسل اليه الجزء الأول من « الشقيقتان » والتى يفضل أن يكون عنوانها « خاتم الزواج » ، وهى تختلف عن « أبناء وعشاق » فى لغتها وفى موضوعها . وكتب له فى خطاب آخر يقول « انهاحقا شيئا جديدا فى فن القصة . » وهذه القصة التى كان عنوانها « الشقيقتان » مرت بمرحلة تغير فيها عنوانها الى « خاتم الزواج » ثم « سفينة نوح » وأخيرا نشر الجزء الأول منها بعنوان « قوس قزح » ١٩١٥ والثانى « نساء عاشقات » ١٩١٦ ولكنها لم تنشر الا فى عام ١٩٢٠ . وقد حاول لورنس أن يبتكر أسلوبا جديدا يساعده فى التعبير عن فلسفته الجديدة وكان يقول : انى أمر بمرحلة انتقالية ... انى أكتب وكل شىء غامض فى نفسى ـ نار مشتعلة فى نفسى ، ولكن ، هناك أبصال مبهمة فى باطن الأرض ، أزهار يجب أن يعتنى بها لربيع آخر . ولكننى أكتب لأعيش ويجب ان تخرج الأزهار ، واذا كانت الأزهار ضعيفة فستكون على ما يرام اذا ما خرجت فى ساعتها . » وفى « أبناء وعشاق » تظهر ثلاثة أنماط من الشخصيات : الاب الأمى الذى يحاول اشباع ملذاته ، والأم التى تحب السيطرة على أبنائها والفتاة العاشقة التى تحاول السمو بروحها ولا تظهر هذه الشخوص فى « قوس قزح » أو « نساء عاشقات » . ويبدو من رسائل لورنس فى هذه الفترة أنه كان يعانى أزمة حادة وانه كان فعلا يمر بمرحلة انتقالية فنحن نقرأ له فى رسائل متفرقة العبارات التالية :

ـ « لم أعد أجد السرور فى خلق مواقف حية كما فعلت فى « أبناء وعشاق » ... »

ـ « هناك شىء عميق فى داخلى يحاول أن يسلخ نفسه منى ... »

ـ « لا تحاول أن تبحث فى قصصى عن الأنا القديمة المستقرة للشخص ... »

ـ « اعتقد ان ما اكتبـه عظيما ـ جديدا جدا ، طبقة حقيقية ، واظنها أعمق بكثير مما وصل اليه أحد فى قصصه ... »

و « قوس قزح » قصة مبتكرة جديدة فى كل شىء ، فهى تختلف عن قصصه الأخرى لأنها تحاول الكشف عن أعماق بعيدة فى نفس الرجل والمرأة ولم يكن لورنس يدرى فى ذلك الوقت عن هـذا الاحساس الجديد الذى يدفعه الى الكتابة بهذه الطريقة شيئا . والقصة تعالج رجالا ونساء يدخلون فى دورات جديدة باستمرار وتسجل تسجيلا دقيقا نموهم وتطورهم . ويصور لنا لورنس فى الصفحتين الأولى والثانيـة من القصة هذا العـالم الغريب تصويرا رائعا لا تخفى علينا رموزه فعلى حدود « داربى شاير » و « نوتنجهام » يعيش آل برانجوين فى مزرعة مارش :

« كانوا يحسون بتدفق العصارة فى الربيع ، وكانوا يعرفون الموجة التى لا تسكن، ولكنها تلقى بالبذور كل عام أمامها للاخصاب ، وعندما تسكن ، تترك صـغارها على الأرض . كانوا يعرفون كيف تخالط الأرض السماء ، وكيف يجذب صدر الأرض وباطنها أشعة الشمس ، وكيف ترضع الأرض المطر فى النهار ، وكيف تصبح عارية تحت الرياح فى الخريف .. كانت حياتهم وعلاقاتهم هكذا : يشعرون بنبض الأرض وجسدها الذى كان يتخدد استعدادا لتلقى الحبوب ويصبح ناعما غضا بعد الحرث ملتصقا بأقدامهم التصاقا يشدهم كالرغبة ، ثم ترقد الأرض جامدة لا تبالى عندما تبدأ المحاصيل فى النضوج.. وامسكوا بضروع الأبقار وفاضت الأبقار بلبنها ونبضت

بالحياة فى أيدى الرجال . ونبض دم حلمات الأبقار مع نبض أيدى الرجال . واعتلوا ظهور خيولهم وقبضوا على الحياة بين أرجلهم وربطوا خيولهم فى العربات وبأيديهم على سيور اللجام سيطروا عليها وأخضعوها لارادتهم » .

أما نساء آل برانجوين فقد « كن يردن نوعا آخر من الحياة . شيئا آخر لا يكون غرزيا . كن ينظرن دائما الى الأفق المتسع ، الى خارج دائرتهن الضيقة المحدودة . »

والقصة قصة ثلاثة أجيال متعاقبـــة يرقبها لورنس عن كثب ويسجل تطور العلاقات المختلفة بين رجالها ونسائها . ونبـدأ بتوم برانجوين الذى يقابل فى يوم من الأيام سيدة بولندية اسمها ليديا لنسكى ويشعر نحوها باحساس غريب ثم يتزوجها ، ثم نقـــابل ويل برانجوين وانا واخيرا يورسولا وسكربنسكى . ويصف لورنس لنا بدقة متناهية لحظات التقارب والالتقاء والتجاذب الروحى والجسدى التى يعقبها فترات من التباعد والتنافر واللامبالاة بين الرجل الزوج والمرأة الزوجة ولهذا نجد التقابل فى الشخصيات وتتضح الفروق من تعاقب الأجيال الثلاثة ومن الافتاحية الفنية بالرموز الجنسية .

وتبدأ القصة بطريقة تقليدية الى حد ما تذكرنا بأسلوب جورج اليوت وتوماس هاردى ولو أنها تزخر بأسلوب لورنس وطريقتـــه فى ابراز حياة الفرد الذاتية وارتباطه بالقوى الحيوية فى الطبيعة من حوله . ويختلف لورنس عن جورج اليوت وتوماس هاردى فى قـدرته على الانتقـــال السريع من الوصف الطبيعى الى الايحاء الرمزى . ويحرص لورنس فى تأريخه لهذه الأجيال الثلاثة على ابراز عامل الوراثة ولهذا نجد أحيانا تكرارا مملا فرضـــته عليه فكرة القصة الرئيسية وهى تحليل العلاقة بين الرجل والمرأة من جيل لآخر ، ومحاولته الوصول الى التوازن أو الاستقطاب . وكان من الضرورى أن يصور لنا لورنس أن الطريق الى الاكتمال لا يأتى الا عن طريق التجربة والخطأ وفى النهاية سيتمكن الفرد من أن « يجتذب الحياة الى نفسه من القوى الحيوية الهائلة المبعثرة فى العالم . » ولهذا فالفقرات الأولى تعتبر الجنين الذى ينمو فيصبح « قوس قزح » .

ويجد توم برانجوين التكامل الى حد ما فى زواجه من ليديا لينسكى ولا سيما وانها من عالم غريب مجهول . وتظل الزوجة « غريبة » فى هذا العـــالم ويظل الزوج هو الآخر « غريبا » فى عالمه المظلم حتى يجرفه تيار شديد من مياه الأمطار ويموت غرقا . ويظهر ويل برانجوين على مسرح الحوادث ويقع فى غرام « أنا » ويتزوجها . ويبدأ الصراع بينهما بعد شهر العسل القصير وتبدأ شخصية ويل برانجوين فى التكشف لنا ، فهو ليس بالرجل الريفى ولكنه فنان مغرم بالفن المعمارى فى الكنائس القوطية ، ولا يشده الزجاج الملون أو النحت على الجـدران والأعمدة فحسب فى الكنيســة بل روح الغموض والظلام الذى تحتويه الكنيسة داخلهـــا . فالدين بالنسبة له ليس مجرد طقوس أو قوانين خلقية بل هو تجربة عاطفية واحساس بالأزل والمطلق ولهذا يؤمن بالمعجزات ويحب الرموز الدينية . وينظر ويل برانجوين الى الكنيسة بنفس النظرة التى كان آل برانجوين ينظرون بهـــا الى الأرض والطبيعة من حولهم ، ويصف لورنس الكنيسة بأسلوب مماثل لأسلوبه فى الفقرات الأولى من القصة :

« بين الشرق والغرب ، بين الفجـــر وغروب الشمس ، كانت الكنيسة ترقد كبذرة فى سكون ، غامضة قبـل الانبات ، يكتنفها السكوت بعـــد الموت . وظلت الكاتدرائية صامتة ، بذرة ضخمة ستكون زهرتها حياة متألقة لا يمكن تخيلها ، ففيها الحياة والموت ، وأولها وآخرها دائرة السكون » .

ولكن الزوجة لا تحترم افتتـــان زوجها بالكنيســة ، فالمذبح قاحل ، والكاتدرائية مكان محدود

يجب على الانسان الهروب منـــه والانطلاق فى العالم الرحب الواسع تحت السماء الزرقاء ، واقواس الكنيسة لا تعادل فى جمالها قوس قزح . فأقواس الكنيسة تنطلق عموديا الى اعلى وتمثل التسامى والروحية ، اما قوس قزح فينطلق الى أعلى ثم يعود الى الارض مرة ثانية . ويرمز قوس قزح الى تحقيق كل الاشياء التى يعمل على احباطهـــا عالم لورنس ويشير الى الحياة الذاتية فيما وراء الوعى . اما قوس الكاتدرائية فيوحى بالاطمئنان والامان ولا يعتبر طريقـا كاملا فى الحياة . ولا يمكن لشخص مثل ويل برانجوين او سكربنسكى الذى يقدس الواجب او جيرالد فى « نساء عاشقات » أن يصل الى الاحساس بأهمية قوس قزح . فيجـــد ويل الراحة فى قلب الكنيسة الذى يطلق عليه لورنس « الرحم » ولكنه يفشل فى تحقيق هـــذا التوازن بين الروح والجســـد ، هذا التناسق بين العقل والشعور . كان يعتقد أن الكنسة هى « المطلق » فى عالم يزخر بالمتناقضات ، ولكنه فقد ايمانه بالمطلق وكان صوت زوجته « هو صوت الحية فى جنة عدن . » ويعود مع زوجته الى المنزل وهو يفكر :

« لقد كان يعتقد أن الكاتدرائية هى المطلق . أما الآن فقد شاهدها وهى تقبع تحت السماء ، ولا زال العالم الحقيقى الغامض المظلم فى داخلها ، ولكنه عالم من داخل عالم آخر ، استعراض جانبى ، وكانت قبل ذلك بالنسبة له عالما وسط الفوضى : حقيقة ، نظاما ، مطلقا ، داخل فوضى بلا معنى .. لقـــد كان هناك حياة خـــارج الكنيسة . كانت هناك أشياء كثيرة لم تحتويها الكنيسة . وأخذ يفكر فى الله ، وفى قبة السماء الزرقاء فى ذلك اليوم . كان هذا شيئا عظيما وطلقا . وأخـــذ يفكر فى حطام العقيدة الاغريقية ، وبدا له أن المعبد لا يصبح معبدا كاملا الا اذا تحطـــم واختلط بالريح والسماء والأعشاب » .

ويعود الزوج فى النهـــاية الى هوايته وهى النقش على الخشب وتولى الزوجة المخصبة أولادها التسعة عنايتها .

ونصل الى الجيل الثالث : يورسولا وعشيقها سكربنسكى . وترث الفتاة عن والدها اهتمامه بالكنيسة والدين بطريقة مختلفـــة . فبينما كان والدها يهتم بالمطلق المجرد فى الكنيسة أخذت هى تهتم بالدين عن طريق حبها للمسيح وتحاول التوفيق بين الجسد والروح . وتقع فى غرام سكربنسكى ويتركها لفترة ويعود اليها بعـــد ست سنوات ويتفقان على الزواج ولكنها تكتشف أنها تحبه جسديا ولا تحبه من أعماق نفسها ويفترقان . وفى نهاية القصة ترى يورسولا قوس قزح على أنه رمز للحياة المتكاملة الحيوية التى تجمع بين العقل والجســـد ويسمو بهما الى وراء حـــدود العلاقات الحسية والروحية المتعارف عليها .

ان احســاسات أبطال لورنس وبطلاته فى قصصـــه احساس غامض حيوى غرزى متغير كالزئبق ، فهم يحبون ويكرهون دون ادراك واع منهم . ويتم عنـــدما تسيطر عليهم « غريزة الدم » وعندما يحدث هذا التلاقى يظهر « شعاع من الفهم » يصل بين الطرفين . والحياة الحقة عنده هى هـــذا الفهم المتصل والعيش فى العالم الغرزى باستمرار . ولكن الجسم الانسانى لا يحتمل الانفعال بهذه الطريقة . ان عبقرية لورنس تظهر دائما فى مقـــدرته على وصف حالات معينـــة من الادراك المباشر لهذه القوى الخفية التى تحركنا وفى مواقف معينـــة فى مناظر متفرقة فى قصصه . ويظهر جمال أسلوبه عندما يكون واقعا تحت تأثير هذه التجارب الحسية والنفسية الفائقـــة وعندئذ يتحرر الشاعر من المبشر بفلسفة جديدة ويكشف لنا لورنس عن عبقريته من خلال الضباب الكثيف الذى يكتنف رسالته . ان ما حققه لورنس رائع جـــدا ولكن ليس من العسير أن يخفى علينا أنه قد اختل فيما حققه لورنس شىء ما . ان العقل ليس بالضرورة عقبة فى سبيل الاحساس والاكتمال .